المسّ الشيطانى

للإمام إبن الجوزى
والإمام إبن القيِّم

إعداد

شحاته زايد

الناشر



للنشر والتوزيع والتصدير

١٦ شارع كامل صدقى بالفجالة
القاهرة ت ٩١١٣٧١

حقوق الطبع محفوظة للناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم • إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾.

صـــدق اللـــه العظيـــم

(الأعراف : ٢٠٠ ـ ٢٠١)

إهــــداء

إلى روح الإمام العالم الجليل فضيلة الشيخ المجاهد أحمد عيسى عاشور، مؤسس مجلة الإعتصام والأب الروحى لمجلة المختار الإسلامى، والذي رحل عن دنيانا يوم الجمعة ٢٢ ذى القعدة ١٤١٠هـ الموافق ١٥ يونية ١٩٩٠م.

إلى صاحب الفقه الميسر والذكر الميسر والدعاء الميسر، أهدى هذا الكتاب الميسر، سائلا الله عز وجل أن يتغمد الراحل الكريم بواسع رحمته ويسكنه فسيح جناته.

شحاتة زايد

المقـــدمـــة

الحمد لله حمد الشاكرين، والشكر لله شكر الحامدين، وأشهد أن لا إله إلا الله ولى الصالحين، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدا رسول الله خاتم الأنبياء وإمام المتقين، صلوات ربى وسلامه عليك ياسيدى يارسول الله يامن بلغت الرسالة وأديت الأمانة وعلى آلك وصحبك أجمعين والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعـــد ،

فهذا هو لقاؤنا الثانى مع كتب التراث الخالدة التى كتبها فطاحل الأئمة وجهابذة علماء الأمة جزاهم الله خيرا عن كل ما قدموه للإسلام والمسلمين وتغمدهم بواسع رحمته ورضوانه.

وقد اتفقنا على أن زماننا الذى نعيشه لم يعد يترك للناس الفرصة الكافية للاطلاع المتأمل أو القراءة المتأنية، فأمور الحياة وهموم المعيشة شغلت الناس فأصبحوا ولا وقت لديهم لقراءة كتب التراث العظيمة ولا حتى للاطلاع عليها.

ولذلك كانت مبادرة دار المختار الاسلامى بإعداد هذه الكتب إعدادا ميسرا وجيزا يحقق الفائدة المرجوة ويوصل المعلومة الصحيحة للقارئ بفضل الله.

وبعد أن صدر كتاب "مختصر التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة" والذى نال استحسان القراء وتشجيعهم، فقد وقع الاختيار على المصنفين الشهيرين "إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان" للإمام الحافظ أبى عبد الله محمد بن أبى بكر الشهير بابن القيم الجوزية، و"تلبيس إبليس"

للإمام الفقيه جمال الدين أبى الفرج عبد الرحمن ابن الجوزى عليهما رحمة الله.

ولأن المصنفين يتناولان موضوعا واحدا هو إبليس اللعين، وعدواته الحاقدة لبنى آدم ونزغاته ومصائده ومسه وتوهيمه وتلبيسه، فقد رأينا أن يتضمن كتابنا هذا خلاصة ما جاء فى هذين المصنفين.

ونحن نقصر عملنا على الاختصار الذى لايخل بالمضمون، ولاننقل إلا مايوافق الكتاب والسنة، ولانتطرق إلى الروايات التى عليها خلاف، ولانتدخل إلا بإضافة لتوضيح معنى أو بصياغة لتحقيق الترابط والانسجام بين الأبواب والفصول، مع الالتزام بعرض المضمون بصورة عصرية مبسطة دون إغراق القارئ فى أمور لاتهمه أو تفاصيل لاتعنيه.

وإذا كان هناك من فضل فى إخراج هذه الكتب فذلك مرجعه إلى دار المختار الإسلامى الصرح الشامخ فى عالم النشر وتوجيهات صاحبها الأستاذ الفاضل الحاج/ حسين عاشور أمد الله فى عمره ونفع به الإسلام والمسلمين.

والله أسأل أن تعم الفائدة، وهو سبحانه من وراء القصد.

القاهر : أكتوبر ١٩٩٠م

شحاته زايد

إبليس .. ذلك اللعين

لما خلق الله الإنسان ركب فيه الهوى والشهوة ليجتلب بهما ماينفعه، ووضع فيه الغضب ليدفع به مايؤذيه، ومنحه العقل كالمؤدب يأمره بالعدل فيما يجتلب ويجتنب، وخلق الشيطان محرضا له على الإسراف فى اجتلابه واجتنابه.

والله سبحانه لم يخلق خلقه سدى هملا، بل جعلهم موردا للتكليف ومحلا للأمر والنهى، وألزمهم فهم ما أرشدهم إليه مجملا ومفصلا، وقسمهم إلى شقى وسعيد، وجعل لكل واحد من الفريقين منزلا، وأعطاهم مواد العلم والعمل من القلب والسمع والبصر والجوارح نعمة منه وتفضيلا، فمن استعمل ذلك فى طاعته وسلك به طريق معرفته علي ما أرشد إليه ولم يبغ عنه عدولا، فقد قام بشكر ماأوتيه من ذلك، وسلك به إلى مرضاة الله سبيلا، ومن استعمله فى إرادته وشهواته ولم يرع حق خالقه فيه يخسر إذا سئل عن ذلك ويحزن حزنا طويلا فإنه لابد من الحساب على حق هذه الأعضاء لقوله تعالى: ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا﴾ (الإسراء:٣٦).

ولما كان القلب لهذه الأعضاء كالملك المتصرف فى الجنود، فهو يأمرها وهى تطيع ويستعملها فيما يشاء فكلها تحت عبوديته وقهره وتكتسب منه الإستقامة والزيغ، ولذلك نجد رسول الله ﷺ يقول: "ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب" رواه البخارى ومسلم، فهو ملكها وهى المنفذة لما يأمرها به القابلة لما يأتيها من هديه، ولايستقيم لها شئ من أعمالها حتى تصدر عن قصده ونيته، وهوالمسئول عنها كلها لأن كل راع مسئول عن رعيته، ولذلك كان الإهتمام بتصحيحه وتسديده أول ما اعتمد عليه السالكون، والنظر فى أمراضه

وعلاجها أهم ما تمسك به الناسكون.

ولما علم عدو الله إبليس أن المدار على القلب والإعتماد عليه، أجلب عليه بالوسواس وأقبل إليه بوجوه الشهوات وزين له من الأحوال والأعمال مايصده به عن الطريق، ومده من أسباب الغي بما يقطعه عن أسباب التوفيق، ونصب له من المصايد والحبائل ما إن سلم من الوقوع فيها لم يسلم من أن يحصل بها التعويق، فلا نجاة من مصايده ومكايده إلا بدوام الاستعانة بالله تعالى والتعرض لأسباب مرضاته والتجاء القلب إليه وإقباله عليه فى حركاته وسكناته ليحصل له الدخول فى ضمان قوله تعالى: ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾ (الحجر: ٤٢) وليشمله الاستثناء الوارد فى قوله تعالى على لسان إبليس: ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ (ص: ٨٣).

والعمل السيئ مصدره عن فساد قصد القلب، ثم يعرض للقلب من فساد العمل قسوة فيزداد مرضا على مرضه حتى يموت ويبقى لا حياة فيه ولا نور له وكل ذلك من انفعاله بوسوسة الشيطان وركونه إلي عدوه الذى لا يفلح إلا من جاهره بالعصيان.

لذلك فإن الواجب يقتضى من الإنسان العاقل أن يأخذ حذره من هذا العدو الذى أظهر عداوته من زمن آدم عليه السلام، وبذل عمره ونفسه فى فساد أحوال بنى آدم، خاصة وقد أمرنا الله تعالى بالحذر منه فقال تعالى: ﴿ ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين . إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون﴾ (البقرة: ١٦٨، ١٦٩) وقال تعالى: ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ﴾(البقرة: ٢٦٨) وقال: ﴿ ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا ﴾ (النساء: ٦٠) وقال: ﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ﴾ (المائدة: ٩١) وقال: ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ﴾

(فاطر: ٦) وفى القرآن الكريم كثير من الآيات التى يحذرنا الله سبحانه وتعالى فيها من هذا العدو المضل المبين.

وقد أفصح إبليس عن عداواته لبنى آدم منذ الوهلة الأولى، فعندما أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام امتنع إبليس اللعين عن تنفيذ أمر الخالق، وأخذ يفاضل بين الأصول ويقول: ﴿ خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾ (ص: ٧١) ثم راح يعترض على الملك الحكيم ويقول: ﴿ أرأيتك هذا الذى كرمت على ﴾ (الإسراء: ٦٢) أى أخبرنى لم كرمته على؟ أى أن الذى فعلته ليس بحكمة، ثم تكبر فقال: ﴿ أنا خير منه ﴾ (ص: ٧١) ثم توعد آدم وذريته بالغواية، بل أقسم بعزة الله على ذلك ﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين ﴾ (ص: ٨٢)، ﴿ لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾(الأعراف: ١٦)، ﴿ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ (الأعراف: ١٧) وهذا منتهى الغرور والتبجح والصلف، لكنه مع ذلك كان من الجبن بحيث لم يجرؤ على القول بما قال ولا التوعد بما توعد إلا بعد أن حقق له الله أمنيته وطلبه بالبقاء حيا إلى يوم القيامة ﴿ قال أنظرنى إلى يوم يبعثون * قال إنك من المنظرين ﴾ (الأعراف: ١٤، ١٥) وكلام الله تعالى لايرد، وهو سبحانه لا يخلف وعده، وهكذا تيقن إبليس من أنه ماكث فى الدنيا إلى يوم البعث فصال وجال وهدد وتوعد فى محاولة يائسة لإثبات أن الإنسان ليس جديرا بخلافة الله فى الأرض.

وجاء الرد من الله سبحانه وتعالى على هذا الغرور والصلف والتبجح والتهديد والوعيد ليعرف إبليس حجمه الحقيقى ومدى إمكاناته ومقدرته، قال تعالى فى سورة الحجر مخاطبا إبليس: ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ (الحجر: ٤٢)، ثم بشر المؤمنين بضعف إبليس فقال تعالى فى سورة النحل: ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا

وعلى ربهم يتـوكلون • إنما سلطانه على الذين يتـــولونه والذين هم به مشركون﴾(النحل: ٩٩، ١٠٠) أى أن الله تعـالى نفى سلطان إبليس على أهل التوحيد والإخلاص وأثبت سلطانه على أهل الشرك وعلى من تولاه، بل إن إبليس اعـترف بهذه الحقيقة فبعـد أن أقسم بعزة الله أن يغوى بنى آدم أجمعين استدرك فقال: ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ (ص: ٨٣).

فإذا علمنا ذلك فيجب على الإنسان أن يأخذ حذره من إبليس اللعين لأنه يضمر الشر والسوء لبنى آدم من الأزل وإلى الأبد، ولايمكن بحال من الأحوال أن يكون ناصحا إذ كيف تستقيم النصيحة ممن لم ينصح نفسه؟ وكيف يثق الإنسان بنصيحة عدو أرغى وأزبد، وهدد وتوعد وأقسم بعزة الله أن يضل ويغوى جميع بنى آدم وهو خير من يعرف معنى هذا القسم، بل إنه لم يترك الوقت يذهب سدى فبدأ بآدم عليه السلام "أبو البشر" وحواء عليها السلام "أم البشر" ومازال بهما يوسوس لهما ويزين لهما معصية الخالق ويقسم لهما أنه ناصح أمين حتى أطاعاه وأكلا من الشجرة التى أمرهما الله بألا يقرباها، فخرجا من الجنة وهبطا إلى الأرض وكان هذا أول انتصار يحققه إبليس تنفيذا لقسمه الغليظ، يقول تعالى فى سورة الأعراف: ﴿ فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ماوورى عنهما من سوءاتهما وقال مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أوتكونا من الخالدين، وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين . فدلاهما بغرور ﴾ (الأعراف: ٢٠ ـ ٢٢)، والوسوسة حديث النفس والصوت الخفى، يقول تعالى: ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ماتوسوس به نفسه ﴾ (ق: ١٦)، وعلم عدو الله أنهما إذا أكلا من الشجرة بدت لهما عوراتهما فإنها معصية، والمعصية تهتك ستر ما بين الله وبين العبد، فلما عصيا انتهك ذلك الستر فبدت لهما سوءاتهما، فالمعصية تبدى السوءة الباطنة والظاهرة، ولهذا رأى النبى ﷺ فى رؤياه الزناة والزوانى عراة بادية سوءاتهم، وهكذا إذا رؤى

الرجل أو المرأة فى المنام مكشوف السوءة فإنه يدل على فساد فى دينه، فالله سبحانه وتعالى أنزل لباسين: لباسا ظاهرا يوارى العورة ويسترها، ولباسا باطنا من التقوى يجمل العبد ويستره، فإذا زال عنه هذا اللباس انكشفت عورته الباطنة كما تنكشف عورته الظاهرة بنزع ما يسترها.

ثم قال اللعين: ﴿مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين﴾ أى: إلا كراهة أن تكونا ملكين، وكراهة أن تخلدا فى الجنة، ومن هنا دخل عليهما لما عرف أنهما يريدان الخلود فيها، وهذا باب كيده الأعظم الذى يدخل منه على ابن آدم فإنه يجرى منه مجرى الدم حتى يصادف نفسه ويخالطه ويعرف ماتحبه نفسه وماتؤثره فيستعين بها على العبد، وهكذا فعندما أحس منهما إيناسا وركونا إلى الخلد فى تلك الدار فى النعيم المقيم، عرف أنه لا يدخل عليهما من غير هذا الباب فأقسم لهما بالله أنه ناصح لهما وخدعهما بأن سمى الشجرة شجرة الخلد، وهذا أول المكر والكيد ومنه ورث أتباعه تسمية الأمور المحرمة بالأسماء التى تحب النفوس مسمياتها، فسموا الخمر أم الأفراح، وسمو الربا بالمعاملة، وسموا أبلغ الكفر وهو جحد صفات الرب تنزيها... وهكذا.

وقد قال مطرف بن عبد الله: إن الشيطان قال لآدم وحواء عليهما السلام: إنى خلقت قبلكما، وأنا أعلم منكما فاتبعانى أرشد كما، وحلف لهما، وإنما يخدع المؤمن بالله، قال قتادة: وكان بعض أهل العلم يقول: من خادعنا بالله خدعنا، فالمؤمن غر كريم والفاجر خب لئيم، وفى الصحيح أن عيسى ابن مريم عليه السلام رأى رجلا يسرق فقال: سرقت؟ قال الرجل: لا والله الذى لا إله إلا هو، فقال المسيح: آمنت بالله وكذبت بصرى، وقد ظن آدم عليه السلام صدق إبليس لما حلف له بالله عز وجل وقال: ماظننت أحدا يحلف بالله تعالى كاذبا.

ويعرض علينا رسول الله ﷺ صورة توضح مدى حقد إبليس على البشر

ونزعته الشريرة تجاههم، فقد روى أبو سفيان عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: " إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيئ أحدهم فيقول فعلت كذا وكذا فيقول: ماصنعت شيئا ، قال ثم يجئ أحدهم فيقول: ماتركته حتى فرقت بينه وبين امرأته، قال فيدنيه منه أو قال فيلتزمه ويقول: نعم أنت".

هذا هو إبليس اللعين، لايكفيه أن يغضب الولد أباه ولا أن تعصى البنت أمها ولا أن يترك الرجل الصلاة ولا أن يزنى أو يسرق وإنما يسعده ويثلج صدره أن واحدا من أبنائه استطاع أن يفرق بين رجل وزوجته.. لماذا؟ لأن الضرر الذى سيحدثه هذا الفعل كبير كبير، فالرجل طلق زوجته فانهار بذلك بناء البيت وسوف تقع العداوة بين أهل الرجل وأهل زوجته بالضرورة، وإذا كان هناك أبناء فقد أصبحوا مشتتين بين الأب والأم، فإذا ضمهم الأب لحضانته وتزوج من أخرى فسوف تسيئ زوجته معاملتهم، وإذا لم يتزوج فسوف ينشغل عنهم بأمور الدنيا وبالتالى يهملهم، وإذا ظلوا مع أمهم وتزوجت من آخر فسوف يسيئ زوجها معاملتهم، وإذا لم تتزوج فإنها لن تقوى على رعايتهم بمفردها ، وفى جميع الأحوال ضياع للأبناء فيشبون وكلهم أحقاد على آبائهم وأمهاتهم والمجتمع ذاته، وبذلك يكون إبليس قد جنى من وراء فعل واحد كل هذا الكم من الضغائن والأحقاد.

والله سبحانه وتعالى يعلم وساوس الشيطان وأسلوبه فى غواية بنى آدم، فهو لا يأمرهم بالسوء والفحشاء مباشرة وإنما يزين لهم الطريق خطوة خطوة، وكلما نجح فى خطوة تقدم إلى الخطوة التالية ثم التى تليها وهكذا ولذا نجد رب العزة جل جلاله يقول: ﴿ ولاتتبعوا خطوات الشيطان ﴾ (البقرة: ١٦٨) ويوضح لنا وهب بن منبه رضى الله عنه هذه الخطوات فيقول: إن عابدا كان فى بنى اسرائيل وكان من أعبد أهل زمانه، وكان فى بلده ثلاثة أخوة لهم

أخت وحيدة وكانت بكرا ، وذات يوم عزموا على الخروج للغزو ولم يدروا عند من يخلفون أختهم ولا من يأمنون عليها ولا عند من يضعونها ، وبعد بحث وتفكير أجمعوا رأيهم على أن يخلفوها عند عابد بنى إسرائيل فهم لايثقون فى غيره، فأتوه فسألوه أن يخلفوها عنده فتكون فى كنفه وجواره إلى أن يرجعوا ، فأبى ذلك وتعوذ بالله عز وجل منهم ومن أختهم، فلم يزالوا به حتى أطاعهم فقال: أنزلوها فى بيت حذاء صومعتى، فأنزلوها فى ذلك البيت ثم انطلقوا وتركوها ، فمكثت فى جوار ذلك العابد زمانا ينزل إليها بالطعام من صومعته فيضعه عند باب الصومعة ثم يغلق بابه ويصعد إلى صومعته ثم يأمرها فتخرج من بيتها فتأخذ ما وضع لها من الطعام، فتلطف له الشيطان فأخذ يرغبه فى الخير ويعظم عليه خروج الجارية من بيتها نهارا ويخوفه أن يراها أحد فيظن به السوء فلو مشيت بطعامها حتى تضعه على باب بيتها كان أعظم لأجرك، ولم يزل به حتى مكث إليها بالطعام ووضعه على باب بيتها ولم يكلمها ، ثم جاءه إبليس فرغبه فى الخير والأجر ووسوس له أن يمشى إليها بالطعام حتى يضعه فى بيتها بدلا من وضعه على باب البيت فهذا أعظم لأجره، ولم يزل به حتى مشى إليها بالطعام ووضعه فى بيتها ، ثم جاءه إبليس فرغبه فى الخير وحضه عليه وقال له: لو كنت تكلمها وتحدثها فتأنس بحديثك فإنها قد استوحشت وحشة شديدة، ولم يزل به حتى حدثها من فوق صومعته، ثم أتاه إبليس فقال له: لو كنت تنزل إليها وتقعد على باب صومعتك، وتحدثها وتجلس هى على باب بيتها فتحدثك كان آنس لها ، ولم يزل به حتى أنزله، وأجلسه على باب صومعته يحدثها وتخرج الجارية من بيتها حتى تقعد على بابه فتحدثه، ثم جاء إبليس فرغبه فى الخير والثواب وقال له: "لو خرجت من باب صومعتك وجلست عند باب بيتها تحدثها ولم تخرج هى من بيتها كان أفضل، ففعل العبد ذلك" ثم جاء إبليس فقال له: "لو

دخلت البيت معها فحدثتها ولم تتركها تبرز وجهها لأحد كان أفضل، ولم يزل به حتى دخل البيت فجعل يحدثها نهارها كله، ثم أتاه إبليس يزينها له ولم يزل به حتى ضرب العابد على فخذها وقبلها، فلم يزل إبليس يحسنها في عينيه ويسول له ارتكاب الفاحشة حتى وقع عليها فأحبلها فولدت منه غلاما، فجاء إبليس فقال له: أرأيت إن جاء أخوة الجارية وقد ولدت منك كيف تصنع؟ لا آمن أن تفتضح أو يفضحوك، فاعمد إلى ابنها فاذبحه وادفنه فإنها ستكتم ذلك عليك خشية أن يطلع إخوتها ماصنعت بها ففعل، فأتاه إبليس فقال له: أتراها تكتم إخوتها على ماصنعت بها وقتلت ابنها؟ خذها واذبحها وادفنها مع ابنها فلم يزل به حتى ذبحها وألقاها فى الحفرة مع ابنها وسوى عليهما التراب وصعد إلى صومعته يتعبد فيها، وبعد فترة أقبل إخوتها من الغزو فجاءوا فسألوه عنها فنعاها لهم وترحم عليها وبكاها وقال: كانت خير امرأة وهذا قبرها فانظروا إليه، فأتى إخوتها القبر فبكوا أختهم وترحموا عليها ثم شكروا العابد وانصرفوا إلى أهلهم، فلماجن عليهم الليل وأخذوا مضاجعهم جاءهم الشيطان فى النوم على صورة رجل مسافر فبدأ بأكبرهم فسأله عن أختهم فأخبره بقول العابد وموتها وترحمه عليها وكيف أراهم موضع قبرها، فكذبه الشيطان وقال: لم يصدقكم أمر أختكم، إنه قد أحبل أختكم وولدت منه غلاما فذبحه وذبحها معه فزعا منكم، وألقاهما فى حفيرة احتفرها خلف باب البيت الذى كانت فيها على يمين من يدخله، فانطلقوا فادخلوا البيت فإنكم ستجدونهما كما أخبرتكم هناك، وأتى الأوسط فى منامة فقال له مثل ذلك، ثم أتى الأصغر فقال له مثل ذلك، فلما استيقظوا أقبل بعضهم على بعض وأخبر بعضهم بعضا بما رأى فى منامه فقال أكبرهم: هذا حلم ليس بشئ فامضوا بنا ودعوا هذا عنكم، لكن الأصغر قال: والله لا أمضى حتى آتى هذا المكان فأنظر فيه، فانطلقوا جميعا حتى أتوا

البيت الذى كانت فيه أختهم ففتحوا الباب وبحثوا عن الموضع الذى وصف لهم فى منامهم وحفروا فوجدوا أختهم وابنها مذبوحين فى الحفيرة كما قيل لهم. فسألوا العابد فصدق قول إبليس فيما صنع بهما، فاستعدوا عليه ملكهم فأنزل من صومعته وقدم ليصلب، فلما أوثقوه على الخشبة أتاه الشيطان فقال له: قد علمت أنى أنا صاحبك الذى فتنتك بالمرأة حتى أحبلتها وذبحتها وابنها فإن أطعتنى اليوم وكفرت بالله الذى خلقك وصورك خلصتك مما أنت فيه، فكفر العابد، فلما كفر بالله تعالى خلى الشيطان بينه وبين أصحابه فصلبوه حتى مات، ففيه نزلت هذه الآية: ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برئ منك إنى أخاف الله رب العالمين ﴾ (الحشر: ١٦).

وهذه صورة أخرى يرويها لنا المبارك ابن فضالة عن الحسن قال: كانت شجرة تعبد من دون الله، فجاء رجل فقال: لأقطعن هذه الشجرة وجاء ليقطعها غضبا لله فلقيه إبليس فى صورة إنسان فقال له: ماذا تريد؟ قال: أريد أن أقطع هذه الشجرة التى تعبد من دون الله، قال إبليس: إذا أنت لم تعبدها فما يضرك من عبدها؟ قال الرجل بإصرار: لأقطعنها، فتلطف له إبليس وقال له: هل لك فيما هو خير لك وماتستعين به على قضاء حوائجك؟ لاتقطعها ولك ديناران كل يوم إذا أصبحت عند وسادتك فقال الرجل: وهل هذا يعقل؟ ومن أين ستأتينى هذه الدنانير؟ قال إبليس: جرب ولن تخسر شيئا وإذا لم تجد الدينارين فى الصباح تعال واقطع الشجرة، فرجع الرجل فأصبح فوجد دينارين عند وسادته ففرح فرحا عظيما، ثم أصبح بعد ذلك فلم يجد شيئا، فاغتاظ وأخذ معوله وذهب ليقطع الشجرة، فتمثل له الشيطان وقال له: ماذا تريد؟ قال: أريد قطع هذه الشجرة التى تعبد من دون الله، قال الشيطان: كذبت مالك إلى ذلك من سبيل فذهب ليقطعها فضرب الشيطان به الأرض وخنقه حتى كاد يقتله وقال له: أتدرى من أنا؟ أنا الشيطان، جئت أول مرة غضبا

لله فلم يكن لى عليك سبيل، فخدعتك بالدينارين فتركتها ، فلما جئت غضبا للدينارين سلطت عليك.

وهناك صور أخرى لما يستطيع إبليس فعله والكيد به لبنى آدم، روى سالم ابن عبد الله رضى الله عنه عن أبيه قال: لما ركب نوح عليه السلام السفينة رأى فيها شيخا لم يعرفه فقال له نوح: ما أدخلك؟ قال: دخلت لأصيب قلوب أصحابك فتكون قلوبهم معى وأبدانهم معك، فقال له نوح: أخرج ياعدو الله، فقال إبليس: خمس أهلك بهن الناس وسأحدثك بثلاث ولا أحدثك باثنتين، فأوحى الله تبارك وتعالى إلى نوح عليه السلام أنه لا حاجة لك إلى الثلاث، مره يحدثك بالاثنتين، فقال إبليس: بهما أهلك الناس وهما لا يكذبان: الحسد والحرص، فبالحسد لعنت وجعلت شيطانا رجيما وبالحرص أبيح لآدم الجنة كلها فأصبت حاجتى منه فأخرج من الجنة، والحسد أن يرى الرجل لأخيه نعمة فيتمنى أن تزول عنه وتكون له دونه، والغبطة أن يتمنى أن يكون له مثلها ولايتمنى زوالها عنه، والأول مذموم والثانى محمود ، والحسد موجود فى كل زمان ومكان وقد حذرنا الله تعالى منه، وأمرنا بالتعوذ منه، قال تعالى: ﴿قل أعوذ برب الفلق * من شر ما خلق.. إلى قوله تعالى: ومن شر حاسد إذا حسد﴾ (الفلق: ١ـ ٥)، والحرص هو شدة الإرادة والشره إلى المطلوب وهو نوعان: حرص فاجع وحرص نافع، فالأول حرص المرء على الدنيا وهو مشغول معذب بها فلا يفرغ من محبتها ، والثانى حرصه على طاعة الله تعالى خوف أن تفوت.

ولقى إبليس موسى عليه السلام فقال له: ياموسى أنت الذى اصطفاك الله برسالته وكلمك تكليما ، وأنا من خلق الله تعالى أذنبت وأريد أن أتوب فاشفع لى إلى ربى عز وجل أن يتوب على، فدعا موسى ربه فقيل ياموسى قد قضيت حاجتك، فلقى موسى إبليس فقال له: قد أمرت أن تسجد لقبر آدم

ويتاب عليك فاستكبر إبليس وغضب وقال: لم أسجد له حيا أأسجد له ميتا؟! ثم قال إبليس: ياموسى إن لك حقا بما شفعت إلى ربك فاذكرنى عند ثلاث لا أهلك فيهن، أذكرنى حين تغضب فأنا وحى فى قلبك وعين فى عينك وأجرى منك مجرى الدم، واذكرنى حين تلقى الزحف فإنى آتى ابن آدم حين يلقى الزحف فأذكره ولده وزوجته وأهله حتى يولى، وإياك أن تجالس امرأة ليست بذات محرم فإنى رسولها إليك ورسولك إليها.

ويقول القرشي: حدثنى محمد بن إدريس عن حسن بن صالح قال: سمعت أن الشيطان قال للمرأة: أنت نصف جندى وأنت سهمى الذى أرمى به فلا أخطئ وأنت موضع سرى وأنت رسولى فى حاجتى.

ويقول الإمام أبو الفرج ابن الجوزى رحمه الله: فتن الشيطان ومكايده كثيرة ولكثرتها وتشبثها بالقلوب عزت السلامة، فإذا رأت الملائكة مؤمنا قد مات على الإيمان تعجبت من سلامته، ولذلك فقد أمرنا الله تعالى بالتعوذ من الشيطان الرجيم عند التلاوة، قال تعالى: ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾ (النحل: ٩٨) وأمرنا بالتعوذ عند السحر فقال: ﴿ قل أعوذ برب الفلق.. إلى آخر السورة ﴾ (الفلق: ١ـ ٥)

فإذا كان الأمر بالتحرز من شر الشيطان فى هذين الأمرين فكيف فى غيرهما ؟

روى عروة بن الزبير أن السيدة عائشة رضى الله عنها حدثته أن رسول ﷺ خرج من عندها ليلا، قالت: فغرتَ عليه، فجاء فرأى ما أصنع فقال: "مالك ياعائشة أغرت؟ فقلت: ومالى لايغار مثلى على مثلك؟ فقال: أو قد جاءك شيطانك؟ قلت: يارسول الله أو معى شيطان؟ قال: نعم، قلت: ومع كل إنسان؟ قال: نعم ، قلت: ومعك يارسول الله؟ قال: نعم ولكن ربى عز وجل أعاننى عليه حتى أسلم" رواه مسلم.

وفى الصحيحين عن صفية بنت حيى زوج النبى قالت: "كان رسول الله ﷺ معتكفا فأتيته أزوره ليلا فحدثته ثم قمت لأنقلب فقام معى ليقلبنى (ليردنى إلى منزلى) وكان مسكنى فى دار أسامة بن زيد فمر رجلان من الأنصار فلما رأيا رسول الله ﷺ أسرعا، فقال النبى ﷺ: على رسلكما إنها صفية بنت حيى، فقالا: سبحان الله يارسول الله، قال: إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم، وإنى خشيت أن يقذف فى قلبيكما شرا، أو قال شيئا".

وعن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ قال: "إن الشيطان يأتى أحدكم فيقول: من خلقك؟ فيقول: الله تبارك وتعالى، فيقول: فمن خلق الله؟ فإذا وجد أحدكم ذلك فليقل: آمنت بالله ورسوله فإن ذلك يذهب عنه".

ويقول الإمام أبو الفرج ابن الجوزى: إن إبليس يدخل على الناس بقدرما يمكنه، ويزيد تمكنه منهم ويقل على مقدار يقظتهم وغفلتهم وجهلهم وعلمهم، وله قدرة عجيبة على إظهار الباطل فى صورة الحق فهذه إحدى أسلحته، ولا ييأس من غواية بنى آدم مهما طال الأمد، يقول الحسن بن صالح: إن الشيطان ليفتح للعبد تسعة وتسعين بابا من الخير يريد به بابا من الشر، وسأل رجل الحسن البصرى: أينام إبليس؟ فقال: لو نام لوجدنا راحة، وقال الأعمش: حدثنا رجل كان يكلم الجن، قالوا: ليس علينا أشد ممن يتبع السنة، وأما أصحاب الأهواء فإنا نلعب بهم لعبا، ولذلك فإن إبليس يجد ضالته فى الجهلاء وأصحاب الأهواء والغفلة، وأما من تذرع بالإيمان فإن نبل العدو لايقع منه فى مقتل.

القلـوب وأسـرارها

يوصف القلب بالحـيـاة وضـدها، وينقـسم إلى ثلاثة أنواع: قلب صـحيح (سليم) وقلب سقيم (مريض) وقلب لا حياة فيه (ميت)، فالقلب الصحيح هو القلب السليم الذى لاينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به كما قال تعالى: ﴿يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ (الشعراء: ٨٨- ٨٩) فالسليم هو الذى صارت السلامة صفة ثابتة فيه، ومعنى القلب السليم أنه الذى قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه ومن كل شبهة تعارض خبره فسلم من عبودية ماسواه وسلم من تحكيم غير رسوله، فسلم فى محبة الله مع تحكيمه لرسوله فى خوفه ورجائه والتوكل عليه والإنابة إليه والذل له وإيثار مرضاته فى كل حال والتباعد من سخطه بكل طريق وهذه حقيقة العبودية التى لاتصلح إلا لله وحده.

فالقلب السليم هو الذى سلم من أن يكون لغير الله فيه شريك بوجه ما، بل قد خلصت عبوديته لله وخلص عمله لله، فإن أحب أحب لله وإن أبغض أبغض لله، وإن أعطى أعطى لله وإن منع منع لله، ولايكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسوله ﷺ .

والقلب الثانى ضد هذا وهو القلب الميت الذى لاحياة به، فهو لا يعرف ربه ولا يعبده بأمره ومايحبه ويرضاه، بل هو واقف مع شهواته ولذاذاته ولو كان فيها سخط ربه وغضبه، فهو لا يبالى إذا فاز بشهوته وحظه رضى ربه أم سخط، فهو متعبد لغير الله حبا وخوفا ورجاء ورضاء وسخطا وتعظيما وذلا، إن أحب أحب لهواه وإن أبغض أبغض لهواه وإن أعطى أعطى لهواه وإن منع منع لهواه، فهواه عنده أحب إليه من رضا مولاه، فالهوى إمامه والشهوة قائده والجهل سائقه والغفلة مركبه، ولايستجيب للناصح ويتبع كل شيطان مريد، فمخالطة صاحب هذا القلب سقم ومعاشرته سم ومجالسته هلاك.

والقلب الثالث: قلب له حياة وبه علة، فله مادتان تمده هذه مرة وهذه أخرى، وهو لما غلب عليه منهما، ففيه من محبة الله تعالى والإيمان به والإخلاص له والتوكل عليه ماهو مادة حياته، وفيه من محبة الشهوات وإيثارها والحرص على تحصيلها والحسد والكبر والعجب وحب العلو والفساد فى الأرض ماهو مادة هلاكه وعطبه، وهو ممتحن بين داعيين، داع يدعوه إلى الله ورسوله والدار الآخرة، وداع يدعوه إلى العاجلة، وهو إنما يجيب أقربهما منه بابا وأدناهما إليه جوارا.

فالقلب الأول: حى مخبت لين واع، والثانى: يابس ميت والثالث: مريض فإما إلى السلامة أدنى وإما إلى العطب أدنى.

وقد جمع الله سبحانه بين هذه القلوب الثلاثة فى قوله تعالى: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولانبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله مايلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم، ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفى شقاق بعيد وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾ (الحج: ٥٢ ــ ٥٤) فجعل الله سبحانه وتعالى القلوب فى هذه الآيات ثلاثة: قلبين مفتونين وقلبا ناجيا، فالمفتونان: القلب الذى فيه مرض والقلب القاسى، والناجى: القلب المؤمن المخبت إلى ربه وهو المطمئن إليه الخاضع له المستسلم المنقاد.

فالقلب الصحيح السليم: ليس بينه وبين قبول الحق ومحبته وإيثاره سوى إدراكه، فهو صحيح الادراك للحق، تام الانقياد والقبول له.

والقلب الميت القاسى: لايقبل الحق ولاينقاد إليه.

والقلب المريض: إن غلب عليه مرضه التحق بالميت القاسى، وإن غلبت عليه صحته التحق بالسليم.

فـمـا يلقـيـه الشـيطان فى الأسـمـاع من الألفـاظ، وفى القلوب من الشبـه والشكوك فـتنة لهذين القلبين وقـوة للقلب الحى السليم لأنه يرد ذلك ويكرهه ويبغضه، ويعلم أن الحق فى خلافه فيخبت للحق ويطمئن وينقاد ويعلم بطلان ما ألقاه الشيطان فيزداد إيمانا بالحق ومحبة له وكفرا بالباطل وكراهة له، فلا يزال القلب المفتـون في مرية من إلقاء الشيطان، وأما القلب الصحيح السليم فلا يضره مايلقيه الشيطان أبدا.

والفتن التي تعرض علي القلوب هي أسباب مرضها، وهي فتن الشهوات وفتن الشـبـهـات، فتن الغى والضـلال، فتن المعاصى والبدع فتن الظلم والجهل، فالأولى توجب فساد القصد والإرادة، والثانية توجب فساد العلم والاعتقاد.

وقد قسم الصحابة رضوان الله عليهم القلوب إلى أربعة كما صح عن حذيفة ابن اليمان: القلوب أربعة: قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن، تجرد وسلم مما سوى الحق، والسراج هو مصباح الإيمان فهو مشرق بنور العلم والإيمان، وقلب أغلف فذلك قلب الكافر، كما قال تعالى: ﴿ وقالوا قلوبنا غلف ﴾ (البقرة: ٨٨) وهى الحجاب المستور عن العيون فى قوله تعالى: ﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لايؤمنون بالآخرة حجابا مستورا . وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا﴾ (الإسراء: ٤٥- ٤٦)، وقلب منكوس فذلك قلب المنافق عرف ثم أنكر وأبصر ثم عمى، وأشار بالقلب المنكوس إلى قلب المنافق كما قال تعالى: ﴿ فما لكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا ﴾ (النساء: ٨٨) أى نكسهم وردهم فى الباطل الذى كانوا فيه، وقلب تمده مادتان: مادة إيمان ومادة نفاق وهو لما غلب عليه منهما، فهذا القلب لم يتمكن فيه الإيمان ولم يزهر فيه سراجه، بل فيه مادة منه ومادة من خلافه فتارة يكون للكفر أقرب منه للإيمان، وتارة يكون للإيمان أقرب منه للكفر والحكم للغالب.

أما حقيقة مرض القلب فقد قال الله تعالى عن المنافقين: ﴿فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا﴾ (البقرة: ١٠) وقال تعالى: ﴿ليجعل مايلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض﴾ (الحج: ٥٣) وقال تعالى: ﴿يانساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض﴾ (الأحزاب: ٣٢) وقال تعالى: ﴿لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم﴾ (الأحزاب: ٦٠) وقال تعالى: ﴿وماجعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وماجعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا • ولايرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون • وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا﴾ (المدثر: ٣١) وقد اشتملت الآية الأخيرة على أربعة أحكام: فتنة الكفار، ويقين أهل الكتاب، وزيادة إيمان المؤمنين، وانتفاء الريب عن المؤمنين وأهل الكتاب، والحكم الخامس حيرة الكافر ومن في قلبه مرض وعمى قلبه عن المراد بذلك فيقول: ﴿ماذا أراد الله بهذا مثلا﴾.

وهذا حال القلوب عند ورود الحق المنزل عليها، قلب يفتتن به كفرا وجحودا، وقلب يزداد إيمانا وتصديقا، وقلب يتيقنه فتقوم عليه به الحجة، وقلب يوجب له حيرة وعمى فلا يدرى مايراد به.

والقلب محتاج إلى مايحفظ عليه قوته وهو الإيمان والطاعة، وإلى حمية عن المؤذى والضار وذلك باجتناب الآثام والمعاصى، وإلى استفراغه من كل مادة فاسدة تعرض له وذلك بالتوبة النصوح واستغفار غافر الذنب وقابل التوب، ومرض القلب هو نوع فساد يحصل له، يفسد به تصوره للحق وإرادته له، فلا يرى الحق حقا، أو يراه على خلاف ماهو عليه، أو ينقص إدراكه له وتفسد به إرادته له فيبغض الحق النافع تارة بالشك والريب كما قال مجاهد وقتادة فى قوله تعالى: ﴿ فى قلوبهم مرض ﴾ (البقرة: ١٠) أى شك، وتارة

بشهوة الزنا كما فسر به قوله تعالى: ﴿ فيطمع الذى فى قلبه مرض ﴾ (الأحزاب: ٣٢) فالأول مرض الشبهة والثانى مرض الشهوة.

ومرض القلب نوعان: نوع لايتألم به صاحبه فى الحال كمرض الجهل ومرض الشبهات والشكوك ومرض الشهوات، وهذا النوع هو أعظم النوعين ألما، ولكن لفساد القلب لايحس بالألم ولأن سكرة الجهل والهوى تحول بينه وبين إدراك الألم وهذا أخطر المرضين وأصعبهما وعلاجه إلى الرسل وأتباعهم فهم أطباء هذا المرض.

والنوع الثانى: مرض مؤلم له فى الحال كالهم والغم والحزن والغيظ، وهذا المرض قد يزول بأدوية طبيعية كإزالة أسبابه أو بالمداواة بما يضاد تلك الأسباب، قال تعالى: ﴿ ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء ﴾ (التوبة: ١٥)، فالغيظ يؤلم القلب ودواؤه فى شفاء غيظه فإن شفاه بحق اشتفى وإن شفاه بظلم وباطل زاده مرضا من حيث ظن أنه يشفيه، وهو كمن شفى مرض العشق بالفجور بالمعشوق فإن ذلك يزيد مرضه ويوجب له أمراضا أخرى أصعب من مرض العشق، وكذلك أمراض الهم والغم والحزن أمراض للقلب وشفاؤها بأضدادها من الفرح والسرور، وكذلك الجهل مرض يؤلم القلب، فمن الناس من يداويه بعلوم لاتنفع لجهله بالعلوم النافعة التى هى شرط فى صحته وبرئه، قال النبى ﷺ فى الذين أفتوا بالجهل فهلك المستفتى بفتواهم "قتلوه، قتلهم الله... ألا سألوا إذا لم يعلموا فإنما شفاء العى السؤال" فجعل الجهل مرضا وشفاؤه سؤال أهل العلم، وهذا الحديث رواه أبو داود والدارقطنى عن جابر قال: خرجنا فى سفر فأصاب رجلا منا حجر فشجه، ثم احتلم فسأل أصحابه: هل تجدون لى رخصة فى التيمم؟ فقالوا: مانجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء، فاغتسل فمات، فلما قدمنا على النبى ﷺ أخبر بذلك فقال: "قتلوه قتلهم الله... إلخ.. الحديث.

وكذلك الشاك فى الشئ المرتاب فيه، يتألم قلبه حتى يحصل له العلم واليقين، وهو كذلك يضيق بالجهل والضلال وينشرح بالهدى والعلم، قال تعالى: ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء ﴾ (الأنعام: ١٢٥).

والمقصود أن من أمراض القلب مايزول بالأدوية الطبيعية، ومنها مالا يزول إلا بالأدوية الشرعية الإيمانية، والقلب له حياة وموت ومرض وشفاء وذلك أعظم مما للبدن.

وحياة القلب وإشراقه مادة كل خير فيه، وموته وظلمته مادة كل شر فيه، يقول الله تعالى: ﴿ أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ﴾ (الأنعام: ١٢٢) فجمع بين الأصلين: الحياة والنور فبالحياة تكون قوته وسمعه وبصره وحياؤه وعفته وشجاعته وصبره وسائر أخلاقه الفاضلة، فكلما قويت حياته قويت فيه هذه الصفات، وإذا ضعفت حياته ضعفت فيه هذه الصفات، وحياؤه من القبائح هو بحسب حيائه من نفسه، فالقلب الصحيح الحى إذا عرضت عليه القبائح نفر منها بطبعه وأبغضها ولم يلتفت إليها بخلاف القلب الميت فإنه لايفرق بين الحسن والقبيح كما قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: "هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف وينكر به المنكر" وكذلك القلب المريض بالشهوة فإنه لضعفه يميل إلى مايعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه.

وكذلك إذا قوى نوره وإشراقه انكشفت له صور المعلومات وحقائقها على ماهى عليه فاستبان حسن الحسن وقبح القبيح، قال تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان . ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلي صراط مستقيم﴾ الشورى:٥٢)
فجمع بين الروح الذى يحصل به الحياة، والنور الذي يحصل به الإضاءة والإشراق،

وأخبر جل جلاله أن كتابه الذى أنزله على رسوله ﷺ متضمن للأمرين معا فهو روح تحيا به القلوب، ونور تستضيئ به وتشرق كما قال تعالى: ﴿أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها﴾ (الأنعام: ١٢٢) أى أو من كان كافرا ميت القلب مغمورا فى ظلمة الجهل فهديناه لرشده ووفقناه للإيمان وجعلنا قلبه حيا بعد موته مشرقا مستنيرا بعد ظلمته كمن هو غارق فى غياهب الكفر يرتع فى ظلمات الجهل ولن يخرج منها لأنه لايريد الخروج من الضلال إلى الإيمان.

والمقصود أن صلاح القلب وسعادته وفلاحه موقوف على هذين الأصلين الحياة والموت، قال تعالى: ﴿إن هو إلا ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حيا﴾ (يس: ٦٩ـ ٧٠) فأخبر أن الانتفاع بالقرآن والإنذار به إنما يحصل لمن هو حى القلب كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب﴾ (ق: ٣٧)، وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ (الأنفال:٢٤) فأخبر سبحانه أن حياتنا إنما هى باستجابتنا إلى مايدعونا إليه الله ورسوله من العلم والإيمان، وشبه سبحانه من لا يستجيب لرسوله بأصحاب القبور وهذا تشبيه رائع فإن أبدانهم قبور لقلوبهم فقد ماتت وقبرت فى أبدانهم، قال تعالى: ﴿إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور﴾ (فاطر: ٢٢)، ولهذا جعل سبحانه وحيه الذى يلقيه إلى الأنبياء روحا، قال تعالى: ﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده﴾ (النحل:٢) وقال تعالى: ﴿يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده﴾ (غافر:١٥) وقال تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا﴾ (الشورى:٥٢) لأن حياة الأرواح والقلوب به، وهذه الحياة الطيبة هى التى خص بها سبحانه من قبل وحيه وعمل به، قال تعالى: ﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة • ولنجزينهم أجرهم بأحسن

ما كانوا يعملون ﴾ (النحل: ٩٧) فخصهم سبحانه وتعالى بالحياة الطيبة فى الدارين، كما أخبر أنه يشقى المسيئ بإساءته فى الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ (طه: ١٢٤) وقال تعالى: ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء • كذلك يجعل الله الرجس على الذين لايؤمنون ﴾ (الأنعام: ١٢٥)، فأهل الهدى والإيمان لهم شرح الصدر واتساعه وانفساحه، وأهل الضلال لهم ضيق الصدر والحرج.

ويقول العلماء: إن حياة القلب وصحته لاتحصل إلا بأن يكون مدركا للحق مريدا له، مؤثرا له على غيره، ولما كان فى القلب قوتان: قوة العلم والتمييز وقوة الإرادة والحب، كان كماله وصلاحه باستعمال هاتين القوتين فيما ينفعه فكماله باستعمال قوة العلم فى إدراك الحق ومعرفته والتمييز بينه وبين الباطل، وباستعمال قوة الإرادة والمحبة فى طلب الحق ومحبته وإيثارة على الباطل، فمن لم يعرف الحق فهو ضال، ومن عرفه وآثر غيره عليه فهو مغضوب عليه، ومن عرفه واتبعه فهو منعم عليه، ولذلك فقد أمرنا الله تعالى أن نسأله فى صلاتنا أن يهدينا صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، ولهذا كان النصارى أخص بالضلال لأنهم أمة جهل، واليهود أخص بالغضب لأنهم أمة عناد، وهذه الأمة هى المنعم عليهم، ولهذا قال سليمان بن عيينه: من فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى، ومن فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، لأن النصارى عبدوا بغير علم، واليهود عرفوا الحق وعدلوا عنه، وفى المسند والترمذى من حديث عدى بن حاتم عن النبى ﷺ قال: "اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون".

ولا سعادة للقلب ولا لذة ولانعيم ولاصلاح إلا بأن يكون الله هو إلهه وفاطره وحده وهو معبوده وغاية مطلوبة وأحب إليه من كل ما سواه، لأن كل

كائن حى من إنس أو جن أو حيوان هو فقير إلى جلب ماينفعه ودفع ما يضره ولايتم ذلك إلا بتصوره للنافع والضار والمنفعة من جنس النعيم واللذة والمضرة من جنس الألم والعذاب، ولذلك كان رسول الله ﷺ يدعو ربه فيقول: "أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك" رواه مسلم عن عائشة، كما كان عليه الصلاة والسلام يقول: "اللهم إنى أسلمت نفسى إليك، ووجهت وجهى إليك، وفوضت أمرى إليك، وألجأت ظهرى إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك" رواه البخارى عن البراء بن عازب، فمنه المنجى وإليه المهرب والملجأ وبه الاستعاذة من شر ما هو كائن بمشيئته وقدرته، فالإعاذة فعله والمستعاذ منه فعله أو مفعوله الذى خلقه بمشيئته، فالأمر له والحمد له والملك له والخير فى يديه، لايحصى أحد من خلقه ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، ولهذا كان صلاح العبد وسعادته فى تحقيق معنى قوله تعالى: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ (الفاتحة: ٥) فإن العبودية تتضمن المقصود المطلوب، والمستعان هو الذى يستعان به على المطلوب، فالأول من معنى ألوهيته والثانى من معنى ربوبيته، فالإله هو الذى تألهه القلوب، والرب هو الذى يربى عبده فلا إله إلا هو ولا رب إلا هو ﴿ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير﴾ (الممتحنة:٤).

والقرآن الكريم يتضمن أدوية القلب وعلاجه من جميع أمراضه، يقول تعالى: ﴿ياأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم • وشفاء لما فى الصدور﴾ (يونس: ٥٧) ويقول تعالى: ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾ (الإسراء: ٨٢)، فهو شفاء لما فى الصدور من مرض الجهل والغى فإن الجهل مرض شفاؤه العلم والهدى، والغى مرض شفاؤه الرشد، وقد نزه الله نبيه عن هذين الداءين فقال: ﴿والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى﴾ (النجم: ١، ٢)، وقد تقدم أن جماع أمراض القلب هى أمراض الشبهات والشهوات،

والقرآن شفاء للنوعين ففيه من البينات والبراهين القطعية ما يبين الحق من الباطل فتزول أمراض الشبه المفسدة للعلم والتصور والإدراك بحيث يرى الأشياء على ماهى عليه، وأما شفاؤه لمرض الشهوات فذلك بما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب والتزهيد في الدنيا والترغيب فى الآخرة، والأمثال والقصص التى فيها أنواع العبر والاستبصار، فالقرآن مزيل للأمراض الموجهة للإرادات الفاسدة فيصلح القلب فتصلح إرادته ويعود إلى فطرته التى فطره الله عليها.

والقلب إذا تخلص من الذنوب بالتوبة فقد استفرغ من تخليطه فتخلصت قوة القلب وإرادته للخير فاستراح من تلك الجوانب الفاسدة والمواد الرديئة قال تعالى: ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون ﴾ (النور: ٣٠)، ولهذا كان غض البصر عن المحارم يوجب ثلاث فوائد: الفائدة الأولى حلاوة الإيمان ولذته فإن من ترك شيئا لله عوضه الله تعالى خيرا منه، والنفس مولعة بحب النظر إلى الصور الجميلة والعين رائد القلب فيبعث رائده لنظر ما هنالك فإذا أخبره بحسن المنظور إليه وجماله تحرك اشتياقا إليه، فإذا كف الرائد عن الكشف والمطالعة استراح القلب، لأن النظر يولد المحبة فتبدأ علاقة يتعلق بها القلب بالمنظور إليه، ثم تقوى فتصير صبابة ثم تقوى فتصير غراما، ثم يقوى الغرام فيصير عشقا وهو الحب المفرط ثم يقوى فيصير شغفا وهو الحب الذى وصل إلى شغاف القلب وداخله ثم يقوى فيصير تتيما، والتتيم هو التعبد فيصير القلب عبدا لمن لايصلح أن يكون هو عبدا له، وهذا كله جناية النظر.

والفائدة الثانية فى غض البصر هى نور القلب وصحة الفراسة، قال أبو شجاع الكرمانى: من عمر ظاهره باتباع السنة وباطنه بدوام المراقبة وكف نفسه عن الشهوات وغض بصره عن المحارم واعتاد أكل الحلال لم تخطئ له فراسة،

فمن غض بصره عما حرم الله عز وجل عليه عوضه الله تعالى من جنسه ما هو خير منه، فكما أمسك نور بصره عن المحرمات أطلق الله نور بصيرته وقلبه وهذا أمر يحسه الإنسان من نفسه فإن القلب كالمرآة والهوى كالصدأ فيها فإذا خلصت المرآة من الصدأ إنطبعت فيها صور الحقائق كما هى عليه.

والفائدة الثالثة فى غض البصر هى قوة القلب وثباته وشجاعته فيهرب الشيطان منه، لأن من يخالف هواه يفرق الشيطان من ظله، فقد جعل الله العزة لمن أطاعه والذلة لمن عصاه، قال تعالى: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ (المنافقون: ٨) وقال تعالى: ﴿من كان يريد العزة فلله العزة جميعا ﴾ (فاطر: ١٠) أى من كان يطلب العزة فليطلبها بطاعة الله، وقال بعض السلف: الناس يطلبون العز بأبواب الملوك ولايجدونه إلا فى طاعة الله.

وكل عضو من أعضاء البدن خلق لفعل خاص، وكمال العضو فى حصول ذلك الفعل منه، ومرضه أن يتعذر عليه الفعل الذى خلق له حتى لايصدر منه، أو يصدر مع نوع من الاضطراب، فمرض اليد أن يتعذر عليها البطش، ومرض العين أن يتعذر عليها النظر والرؤية، ومرض اللسان أن يتعذر عليه النطق، ومرض البدن أن يتعذر عليه حركته الطبيعية أو يضعف عنها، ومرض القلب أن يتعذر عليه ما خلق له من معرفة الله ومحبته والشوق إلى لقائه وإيثار ذلك على كل شهوة، فلو عرف العبد كل شئ ولم يعرف ربه فكأنه لم يعرف شيئا، ولو نال كل حظ من حظوظ الدنيا ولذاتها وشهواتها ولم يظفر بمحبة الله فكأنه لم يظفر بلذة ولا نعيم.

وقد يمرض القلب ويشتد مرضه ولايعرف به صاحبه، بل قد يموت وصاحبه لايشعر بموته وعلامة ذلك أنه لا تؤلمه جراحات القبائح ولا يوجعه جهله بالحق وعقائده الباطلة، وقد يشعر بمرضه ولكن يشتد عليه تحمل مرارة الدواء والصبر عليها، فهو يؤثر بقاء ألمه على مشقة الدواء فإن دواءه فى مخالفة

الهوى وذلك أصعب شئ على النفس، وليس لها أنفع منه، فالإنسان محتاج لقوة صبر وقوة يقين ومتى ضعف صبره ويقينه رجع من الطريق وهذه حال أكثر الخلق وهى التى أهلكتهم، والمقصود أن من علامات أمراض القلوب عدولها عن الأغذية النافعة إلى الأغذية الضارة وعدولها عن دوائها النافع إلى دوائها الضار فهنا أربعة أمور: غذاء نافع ودواء شاف، وغذاء ضار ودواء مهلك، فالقلب الصحيح يوثر النافع الشافى على الضار المؤذى والقلب المريض بضد ذلك، وأنفع الأغذية غذاء الإيمان وأنفع الأدوية دواء القرآن وكل منهما فيه الغذاء والدواء، يقول الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه: إن الدنيا قد ترحلت مدبرة وإن الآخرة قد ترحلت مقبلة ولكل منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولاتكونوا من أبناء الدنيا فإن اليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل .

وقال بعض العارفين: مساكين أهل الدنيا، خرجوا من الدنيا وماذاقوا أطيب مافيها، قيل: وما أطيب مافيها ؟ قال: محبة الله والأنس به والشوق إلى لقائه والتنعم بذكره وطاعته.

وسائر أمراض القلب تنشأ من جانب النفس، ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول فى دعائه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا" رواه أبو داود عن ابن مسعود رضى الله عنه، وقد اتفق السالكون إلى الله على أن النفس قاطعة بين القلب وبين الوصول إلى الرب، وأنه لايدخل عليه سبحانه ولايوصل إليه إلا بعد إماتتها وتركها بمخالفتها والظفر بها، فالناس على قسمين: قسم ظفرت به نفسه فأهلكته وملكته وصار طوعا لها تحت أوامرها، وقسم ظفروا بأنفسهم فقهروها فصارت طوعا لهم منقادة لأوامرهم، قال تعالى: ﴿ فأما من طغى، وآثر الحياة الدنيا، فإن الجحيم هى المأوى، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى ﴾ (النازعات: ٣٧ ـ ٤١).

فالنفس تدعو إلى الطغيان وإيثار الحياة الدنيا، والرب يدعو عبده إلى خوفه ونهى النفس عن الهوى، والقلب بين الداعيين يميل إلى هذا الداعى مرة وإلي هذا مرة وهذا موضع المحنة والابتلاء وقد قالت امرأة العزيز بعد أن اعترفت ببراءة يوسف عليه السلام وأنها هى التى راودته عن نفسه ﴿ وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى ﴾ (يوسف: ٥٣).

والنفس تكون تارة أمارة، وتارة لوامة، وتارة مطمئنة، بل فى اليوم الواحد والساعة الواحدة يحصل منها هذا وهذا، والحكم للغالب عليها من أحوالها، فكونها مطمئنة وصف مدح لها، وكونها أمارة وصف ذم لها، وكونها لوامة ينقسم إلى المدح والذم بحسب ماتلوم عليه، يقول رسول الله ﷺ : "الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله" رواه أحمد، دان نفسه: أى حاسبها، وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا فإن أهون عليكم فى الحساب غدا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر، يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية، وقال الحسن إن العبد لايزال بخير ما كان له واعظ من نفسه وكانت المحاسبة من همته.

ومحاسبة النفس نوعان: نوع قبل العمل ونوع بعده، فأما الذى قبل العمل فيقول العلماء: إذا تحركت النفس لعمل من الأعمال وهم به العبد وقف أولا ونظر، هل هذا العمل فى استطاعته؟ فاذا لم يكن فى استطاعته لم يقدم عليه، وإن كان فى استطاعته وقف وقفة أخرى ونظر، هل فعله خير من تركه أو تركه خير من فعله فإن كان الثانى تركه وإن كان الأول وقف وقفة ثالثة ونظر، هل الباعث عليه إرادة وجه الله عز وجل وثوابه أو إرادة الجاه والثناء والمال من المخلوق، فإن كان الثانى لم يقدم عليه وإن قضى به إلى مطلوبه... وهكذا.

وأما محاسبة النفس بعد العمل ففيها أوجه ثلاثة: أحدهما محاسبتها على طاعة قصرت فيها من حق الله تعالى، والثانى: أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركه خيرا له من فعله، والثالث: أن يحاسب نفسه على أمر مباح أو معتاد: لم فعله؟ وهل أراد به وجه الله والدار الآخرة؟ أو أنه أراد به الدنيا وعاجلها؟

وجماع ذلك أن الانسان يجب عليه أن يحاسب نفسه أولا على الفرائض، فإن تذكر فيها نقصا تداركه إما بقضاء أو إصلاح، ثم يحاسبها على المناهى فإن عرف أنه ارتكب منها شيئا تداركها بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية، ثم يحاسب نفسه على الغفلة فإن كان قد غفل عما خلق له تداركه بالذكر والإقبال على الله تعالى، ثم يحاسب نفسه على ماتكلم به أو مشت إليه رجلاه أو بطشت يداه أو سمعته أذناه أو رأته عيناه، ماذا أرادت نفسه بهذا ولمن فعلته وعلى أى وجه فعلته؟ وليتذكر الإنسان دائما أن الله تعالى قال: ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين﴾ (الأعراف: ٦، ٧)، وأنه تعالى أقسم: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾ (الحجر:٩٢، ٩٣)، قال قتادة: كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون، وماذا أجبتم المرسلين؟ فيسأل عن المعبود وعن العبادة.

والنفس مركب الشيطان وموضع شره ومحل طاعته، ومن يتأمل القرآن الكريم والسنة المطهرة يجد اعتناءهما بذكر الشيطان وكيده ومحاربته أكثر من ذكر النفس، فإن النفس المذمومة ذكرت فى قوله تعالى: ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ (يوسف: ٥٣) واللوامة فى قوله تعالى: ﴿ ولا أقسم بالنفس اللوامة ﴾ (القيامة: ٢) أما الشيطان فذكر فى مواضع كثيرة وأفردت له سورة تامة "سورة الناس" فتحذير الرب تعالى لعباده منه جاء أكثر من تحذيره من

النفس، وهذا هو الذي لاينبغي غيره فإن شر النفس وفسادها ينشأ من وسوسته، وقد أمر الله تعالى بالاستعاذة منه عند قراءة القرآن وغير ذلك وهذا لشدة الحاجة إلى التعوذ منه، ولم يأمر بالاستعاذة من النفس في موضع واحد، وإنما جاءت الاستعاذة من شرها في خطبة الحاجة في قول النبي ﷺ: "ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا" وقد جمع النبي ﷺ بين الاستعاذة من الأمرين في الحديث الذي رواه الترمذي وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه "أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: يارسول الله علمني شيئا أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت قال ﷺ: "قل: اللهم عالم الغيب والشهادة فاطر السموات والأرض رب كل شئ ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه وأن أقترف على نفسي سوءا أو أجره إلى مسلم، قله إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك".

وقال تعالى: ﴿وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون﴾ (المؤمنون: ٩٧- ٩٨) والهمزات جمع همزة وأصل الهمز الدفع، قال أبو عبيد الكسائي: همزته ولمزته ولهزته ونهزته إذا دفعته، فهمزات الشياطين: دفعهم الوساوس والإغواء إلى القلب ومعنى هذا أن الاستعاذة في الآية الأولى تضمنت طلب إبعاد وساوس الشيطان وإغوائه، وفي الآية الثانية تضمنت الاستعاذة ألا يمسوه ولا يقربوه، ولما كان الله سبحانه وتعالي قد ذكر ذلك عقيب قوله تعالى: ﴿إدفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون﴾ (المؤمنون:٩٦) فإن الأمر يتضمن أن يحترز الإنسان من شر الشياطين بنوعيهما شياطين الإنس بدفع إساءتهم إليه بالتي هي أحسن، وشياطين الجن بدفع شرهم بالاستعاذة منهم.

التشكيك فى كل شئ وفى كل فعل

أكبر باب يدخل منه إبليس على الناس هو الجهل، ولذلك نراه يدخل على الجهال بأمان، أى بغير عناء أو خشية ويتلاعب بهم كيف شاء، أما العلماء فإنه لايدخل عليهم إلا خلسة، لأن العلم يحصنهم ضد نزغاته ووساوسه وتوهيمه وتلبيسه ولذلك فهم يعرفون جميع أمره ويحترزون من فنون مكره.

وأول الأبواب التى يدخل منها إبليس على الجهال باب التعبد، فهو يوهمهم بأن التعبد أفضل من العلم، وأن المقصود من العلم العمل، والتعبد هو العمل فلماذا يرهقون أنفسهم فى العلم والتعلم فيلتبس الأمر عليهم فلا يؤدون من العبادات إلا أعمال الجوارح أى الأعمال الظاهرة من ركوع وسجود وامتناع عن الطعام والشراب وما إلى ذلك، مع أن الأعمال المثاب عليها هى أعمال القلوب، يقول تعالى: ﴿ أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان ﴾ (المجادلة: ٢٢) ويقول: ﴿ وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ (النحل: ١٠٦) ويقول: ﴿ ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم ﴾ (الحجرات: ٧) فكيف يتمكن الإيمان من القلوب إلا بالعلم؟ يقول ربيع بن خثيم: تفقه ثم اعتزل، ويقول مطرف بن عبد الله: فضل العلم خير من فضل العبادة، ويقول يوسف بن أسباط: باب من العلم تتعلمه أفضل من سبعين غزاة، ويقول المعافى بن عمران: كتابة حديث واحد أحب إلى من صلاة ليلة، وهكذا نرى كيف دخل إبليس على الجهال فاثروا التعبد بالجوارح على العلم فتمكن منهم وبدأ يمارس معهم وعليهم أفعاله الذميمة.

ومن كيده الذى بلغ به من الجهال ما بلغ: الوسواس الذى كادهم به فى أمر الطهارة والصلاة عند عقد النية، حتى ألقاهم فى الآصار والأغلال وأخرجهم عن اتباع سنة رسول الله ﷺ ، وخيل إلى بعضهم أن ماجاءت به السنة لا يكفى حتى يضم إليه غيره، فجمع لهم بين هذا الظن الفاسد والتعب الحاضر

وبطلان الأجر أو تنقيصه.

أخذ يشككهم فى الطهارة من الحدث الأصغر أو الأكبر، فكلما تطهر الإنسان بعد الحدث وسوس له أنه لم يتطهر بما فيه الكفاية، أو أن شيئا قد خرج منه بعد التطهر (ريح مثلا)، فإذا توضأ شككه فى الماء المتوضأ به فمن أين له بأنه طاهر، فإذا لم يستجب له جعله يكثر من استعمال الماء ويطيل الوضوء ويعيده حتى تفوته الجماعة، ولو اتبع هؤلاء سنة رسول الله ﷺ ما تمكن منهم الشيطان ومادخلهم الشك فى أفعالهم، فقد صح أنه ﷺ كان يتوضأ بالمد (ملء كفى الانسان المعتدل إذا ملأهما ومد يده بهما) كما صح عنه أنه كان يغتسل هو والسيدة عائشة رضى الله عنها من قصعة بينهما فيها أثر لعجين، ولو رأى الموسوس ذلك أو شاهد من يفعله لأنكر عليه غاية الإنكار، وثبت فى الصحيح عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال: كان الرجال والنساء على عهد الرسول ﷺ يتوضأون من إناء واحد، وروى عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبى ﷺ مر بسعد وهو يتوضأ فقال: "ما هذا السرف ياسعد؟ قال سعد: أفى الوضوء سرف؟ قال: نعم وإن كنت على نهر جار" رواه أحمد فى مسنده، وفى المسند والسنن من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: "جاء أعرابى إلى رسول الله ﷺ يسأله عن الوضوء، فأراه ثلاثا ثلاثا وقال: هذا الوضوء فمن زاد على هذا فقد أساء وتعدى وظلم" هذا هو هدى رسول الله ﷺ الذى من رغب عنه فقد رغب عن سنته.

ويدخل الناس فى الصلاة فيواصل إبليس ألاعيبه، فيوسوس للمرء أن ثيابه غير نظيفة أو أن بها شيئا من النجاسة، ثم يشككه فى نية الصلاة بإيهامه له بأنه نوى أن يصلى الظهر مع أن الصلاة القائم عليها هى صلاة العصر، وربما شغله بهذه الوساوس حتى تفوته الجماعة وربما فاته الوقت وربما فوت عليه ركعة أو أكثر، يروى أن زين العابدين قال لابنه يوما: يابنى اتخذ

لى ثوبا ألبسه عند قضاء الحاجة فإنى رأيت الذباب يسقط على الشئ ثم يقع على الثوب، ثم انتبه فقال: ماكان للنبى ﷺ وأصحابه إلا ثوب واحد، فتركه.

ويشكك إبليس المرء فى القراءة، ثم فى الركوع والسجود فإذا فرغ من الصلاة شككه أنه صلى ثلاث ركعات وليس أربع.. وهكذا، ويقول فضيلة العالم الشيخ محمد متولى الشعراوى: إن إبليس لايذهب إلى أماكن اللهو والفجور لأن من يذهب إلى هذه الأماكن لايحتاج إلى شيطان ليوسوس له أو ليزين له ارتكاب المعاصى فهو قد أصبح شيطان نفسه، وإنما يركز إبليس جهوده ويكثف من تواجده فى أماكن العبادة ليكيد للمتعبدين، فهؤلاء هم الذين فى حاجة إلى المس والنزغات والوساوس، وهو قد أفصح عن ذلك صراحة ودون مواربة، قال تعالى على لسان إبليس: ﴿قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ (الأعراف:١٦) والصراط المستقيم هو العبادات من صلاة وصوم وزكاة وحج وكافة أوجه البر والخير، قال ابن عباس: صراطك المستقيم أى دينك الواضح، وقال ابن مسعود: هو كتاب الله، وقال جابر: هو الإسلام وقال مجاهد: هو الحق، والجميع عبارات لمعنى واحد هو الطريق الموصل إلى الله تعالى.

وقد حكى بعض العلماء عن ابن عقيل أن رجلا لقيه فقال: إنى أغسل العضو وأقول ما غسلته، وأكبر وأقول ما كبرت، فقال له ابن عقيل: دع الصلاة فإنها ما تجب عليك، فقال قوم لابن عقيل: كيف تقول هذا؟ فقال لهم: قال النبى ﷺ: "رفع القلم عن المجنون حتى يفيق" ومن يكبر ويقول ماكبرت، ويغسل ويقول ماغسلت فهو ليس بعاقل، والمجنون لاتجب عليه الصلاة.

ومن حيل إبليس أنه يورد الإنسان الموارد التى يخيل إليه أن فيها منفعته ثم يصدره المصادر التى فيها عطبه ويتخلى عنه ويسلمه ويقف يشمت فيه ويضحك منه، فيأمره بالسرقة والزنا والقتل ويدل عليه ويفضحه، قال تعالى:

﴿ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم • فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريئ منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب ﴾ (الأنفال: ٤٨) فإنه تراءى للمشركين عند خروجهم إلى بدر في صورة سراقة بن مالك وقال: أنا جار لكم من بني كنانه أن يقصدوا أهلكم وزراريكم بسوء، فلما رأى عدو الله جنود الله تعالى من الملائكة نزلت لنصره رسول الله ﷺ فر عنهم وأسلمهم وتبرأ منهم، وكذلك فعل بالراهب الذي قتل المرأة وولدها، أمره بالزنا ثم بقتلها وقتل وليدها، ثم دل أهلها عليه وكشف أمره لهم، ثم أمره بالسجود له لينقذه من الصلب والقتل، فلما فعل فر عنه وتركه وفيه نزل قول الله تعالى: ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريئ منك إني أخاف الله رب العالمين﴾ (الحشر: ١٦) وهذا السياق لايختص بالذي ذكرت عنه هذه القصة، بل هو عام في كل من أطاع الشيطان في أمره له بالكفر لينصره ويقض حاجته، فإنه يتبرأ منه كما يتبرأ من أوليائه جملة في النار ويقول لهم: ﴿إني كفرت بما أشركتمون من قبل﴾ (ابراهيم: ٢٢) فأوردهم شر الموارد وتبرأ منهم كل البراءة.

ويتابع إبليس مطاردة المؤمنين المتعبدين ليفسد عليهم عبادتهم فيوسوس لهم بكثرة تلاوة القرآن، وهي دعوة ظاهرها الرحمة، فيكثرون من القراءة لكن دون تفكر أو تدبر فكأنهم ماقرأوا وماتلوا، وينزع بعضهم إلى القراءة بالأصوات المجتمعة المرتفعة فيجمعون بين أذى الناس وبين التعرض للرياء وقد كان عمل الربيع بن خثيم كله سرا فربما دخل عليه الداخل وقد نشر المصحف فيغطيه بثوبه.

ويوسوس لهم بإدامة الصوم باعتبار أن الصوم هو العبادة الوحيدة التي لم يعبد بها غير الله، وأنه جل جلاله قال عنه: "كل عمل ابن آدم له إلا الصوم

فإنه لى" ويقع المؤمنون فى الفخ فيديمون الصيام وهم لايعلمون أن الآفة تكمن فى أنه ربما عاد بضعف القوى فأعجز الإنسان عن الكسب لعائلته، ومنعه من إعفاف زوجته، فكم من فرض يضيع بهذا النفل، يروى عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ لقيه فقال: " ألم أحدث عنك أنك تقوم الليل وأنت الذى تقول: لأقومن الليل ولأصومن النهار؟ قلت: نعم يارسول الله قد قلت ذلك، فقال عليه الصلاة والسلام: فقم ونم، وصم وأفطر، وصم من كل شهر ثلاثة أيام ولك مثل صيام الدهر، قال: قلت يارسول الله إنى أطيق أكثر من ذلك، قال: فصم يوما وأفطر يومين، قال: قلت يارسول الله إنى أطيق أكثر من ذلك، قال: فصم يوما وأفطر يوما وهو أعدل الصوم وهو صيام داود عليه السلام، قال: قلت يارسول الله إنى أطيق أفضل من ذلك، فقال عليه الصلاة والسلام: لا أفضل من ذلك".

ويوسوس إبليس للناس فى الحج، هذه الفريضة التى فرضها الله على المستطيع فقط، فيجعلهم يخرجون لأدائها وعليهم ديون أو مظالم، وربما خرجوا للنزهة، وربما حجوا بمال فيه شبهة والله تعالى طيب لايقبل إلا طيبا، وربما خرجوا لشراء اللقب ليقال: فلان حاج، ولذلك نرى هذه الفئة تجتمع حول الكعبة بقلوب دنسة وبواطن غير نقية مع أن المراد من الحج القرب بالقلوب لا بالأبدان وذلك لايتأتى إلا بالتقوى، ويدخل الحجاج مكة المكرمة فلا يتركهم إبليس ويظل على عناده ووساوسه فيجعلهم يضيعون الصلوات ويطففون إذا باعوا أو اشتروا ويبتدعون فى المناسك ما ليس منها، وهكذا حتى يفسد عليهم حجهم.

وهناك من الناس من يشتغل بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهؤلاء يلازمهم إبليس ليفسد عليهم عملهم ودعوتهم، فإذا كان الآمر بالمعروف من العلماء أدخل عليه إبليس العجب والتباهى بذلك الفعل، فإذا جلس فى

مجتمع وصف مافعل وتباهى به وسب أصحاب المنكر ولعنهم، وربما كان هؤلاء القوم قد تابوا وأنابوا وندموا على مافعلوا فكانوا بذلك خيرا منه، أو أدخل عليه الغضب للنفس من جراء مايلقى من الإهانة بسبب دعوته، وأما إذا كان الآمر بالمعروف جاهلا فإن إبليس يتلاعب به كيف شاء، فربما جعله يحل حراما أو يحرم حلالا، وربما جعله ينهى عن شئ جائز بالإجماع، وربما يجعله يكسر الأبواب ويتسور الجدران بحثا عن أهل المنكر وضربهم وقذفهم فإن أجابوه بكلمة تصعب عليه صار غضبه لنفسه وليس لما يدعو إليه.

وتتوالى حيل إبليس وألاعيبه فيحسن للإنسان الاستماع إلى الموسيقى والغناء حتى يتعود على ذلك ويطرب له، فإذا طرب ترنم وردد مايقوله المغنى، ثم جعل يتمايل مع الموسيقى حتى يتحول التمايل إلى رقص فتتحرك فى نفسه الشهوات الكامنة ويقع المحظور، يقول الإمام ابن الجوزى رحمه الله إن سماع الغناء يجمع شيئين: أحدهما أنه يلهى القلب عن التفكر فى عظمة الله سبحانه والقيام بعبادته، والثانى أنه يميل القلب إلى اللذات العاجلة التى تدعو الإنسان الى استيفائها من جميع الشهوات الحسية ومعظمها النكاح، لأن تمام اللذة فى المتجددات ولذلك فهو يحث على الزنا، فبين الغناء والزنا تناسب من جهة أن الغناء لذة الروح والزنا أكبر لذات النفس، ولهذا جاء فى الحديث : "الغناء رقية الزنا" وهذا لأن الالتذاذ بشئ يدعو إلى الالتذاذ بغيره خصوصا مايناسبه.

ولما يئس إبليس أن يسمع من المتعبدين شيئا من الأصوات المحرمة كالعود نظر إلى المغنى الحاصل بالعود فدرجه فى ضمن الغناء بغير العود وحسنه وإنما مراده التدريج من شئ إلى شئ، والفقيه من نظر فى الأسباب والنتائج وتأمل المقاصد فإن النظر إلى الصبى الأمرد مباح إن أمن ثوران الشهوة فإن لم يأمن لم يجز،وتقبيل الصبية التى لها من العمر ثلاث سنين أو أكثر قليلا

جائز إذ لاشهوة تقع هناك فى الأغلب فإن وجد شهوة حرم ذلك، وكذلك الخلوة بذوات المحارم فإن خيف من ذلك حرم وهذه هى القاعدة التى يجب القياس عليها فى كل شئ.

وليس كل الغناء محرماً وإنما المحرم هو الغناء المثير لكوامن الشهوات من شجن ووجد وسهد وما إلى ذلك، وهناك أقوام من الأعاجم يقدمون للحج فينشدون فى الطرقات أشعارا يصفون فيها الكعبة وزمزم والمقام، وربما ضربوا مع إنشادهم بطبل وليس فى هذا مايخرج عن الاعتدال، وهناك الغزاة فإنهم ينشدون أشعارا تحرض على الغزو وتلهب الشعور وتبعث الحماس، وهذا أيضا لايخرج عن حد الاعتدال، وقد أنشد أهل المدينة عند قدوم الرسول ﷺ عليهم: طلع البدر علينا من ثنيات الوداع وجب الشكر علينا مادعا لله داع، أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع، جئت شرفت المدينة مرحبا ياخير داع.

ولاييأس إبليس أبدا من الكيد لبنى آدم وخاصة أولئك الذين شغلهم بالتعبد عن التفكر فى أمور دينهم ودنياهم فيوسوس لهم بعدم الزواج لأن النكاح سيشغلهم عن طاعة الله عز وجل وسيحول بينهم وبين الاشتغال بالعبادة، ثم إن النكاح يوجب النفقة على الزوجة ثم على الأسرة والكسب صعب، ثم هو يوجب الميل إلى الدنيا ومتعها الزائلة، وهؤلاء إن كانت بهم حاجة إلى النكاح أو تشوق إليه فقد خاطروا بأبدانهم وأديانهم، وإن لم يكن بهم حاجة إليه فاتتهم الفضيلة وفاتهم الأجر، روى أبو ذر الغفارى رضى الله عنه قال: "دخل على رسول الله ﷺ رجل يقال له عكاف بن بشر التميمى الهلالى فقال له النبى ﷺ: ياعكاف هل لك من زوجة؟ قال: لا ، قال: ولا جارية؟ قال: لا، قال: وأنت موسر بخير؟ قال: وأنا موسر، قال: أنت إذن من إخوان الشياطين لو كنت من النصارى لكنت من رهبانهم، إن سنتنا النكاح، شراركم عزابكم وأراذل موتاكم عزابكم، وما للشياطين من سلاح أبلغ فى

الصالحين من ترك النساء" ويروى أنس بن مالك رضى الله عنه أن نفرا من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج النبى عن عمله فى السر فأخبروهم فقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا أنام الليل على فراش، وقال بعضهم: أصوم ولا أفطر أبدا، فبلغ ذلك النبى فقام عليه الصلاة والسلام على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: "ما بال أقوام قالوا كذا وكذا، لكنى أصوم وأفطر، وأصلى وأرقد، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى"، وقال شداد بن أوس: زوجونى فإن رسول الله ﷺ أوصانى ألا ألقى الله عزبا، وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "وفى بضع أحدكم أجر، قالوا: يأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه وزر؟ قالوا: نعم، قال: وكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر، ثم قال: أفتحتسبون الشر ولا تحتسبون الخير".

أما كون النكاح يوجب النفقة والكسب صعب فهذه حجة للترفة عن تعب الكسب، روى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "دينار أنفقته فى سبيل الله ودينار أنفقته فى رقبة ودينار أنفقته فى الصدقة ودينار أنفقته على عيالك، أفضلها الدينار الذى أنفقته على عيالك"، وعلم عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن رجلا يلتزم المسجد للتعبد لايخرج منه ليلا ولا نهارا، فسأل أصحابه: كيف يحصل هذا الرجل على طعامه وشرابه؟ قالوا إن له أخا يسعى عليه ويحضر له الطعام والشراب، قال عمر: أخوه أعبد منه.

أما كون النكاح يوجب الميل إلى الدنيا ومتعها الزائلة فهذا أمر مخالف للشرع، فكيف لا يتزوج وصاحب الشرع عليه الصلاة والسلام يقول: "تناكحوا تناسلوا تكثروا فإنى مباه بكم الأمم يوم القيامة"، ويقول: "يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم

يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء"، وكيف لايتزوج والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ (الروم: ٢١)، وفى الحديث الصحيح عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: "هلا تزوجت بكرا تلاعبها وتلاعبك" وما كان عليه الصلاة والسلام بالذى يدله على مايقطع أنسه بالله تعالى، وهل كان الرسول عليه الصلاة والسلام عندما ينبسط إلى نسائه ويسابق عائشة رضى الله عنها أكان خارجا عن الأنس بالله ميالا إلى الدنيا؟ هذه كلها جهالات بالعلم.

وقد أثبت العلماء أن مداومة الشباب على ترك النكاح يؤدى إلى ثلاثة أشياء، الأول: المرض بحبس الماء فإن المرء إذا طال احتقانه تصاعد إلى الدماغ منه منيه، قال أبو بكر محمد بن زكريا الرازى: أعرف قوما كانوا كثيرى المنى فلما منعوا أنفسهم من الجماع لضرب من التفلسف بردت أبدانهم وعسرت حركاتهم ووقعت عليهم الكآبة وقلت شهوتهم، ورأيت رجلا ترك الجماع ففقد شهوة الطعام وصار إن أكل القليل تقيأه، فلما عاد إلى عادته من الجماع سكنت عنه هذه الأعراض.

والشئ الثانى: الفرار إلى المتروك، فهناك خلق كثير صابروا على ترك الجماع فاجتمع الماء وأقلقهم فلامسوا النساء ولابسوا من الدنيا أضعاف مافروا منه فكانوا كمن أطال الجوع ثم أكل كل ماترك فى زمن الصبر.

والشئ الثالث: الانحراف إلى صحبة الصبيان، فإن قوما أيسوا أنفسهم من النكاح فأقلقهم ما اجتمع عندهم من ماء فصاروا يرتاحون إلى صحبة المرد (الصبيان حسان الوجوه) وانحرف بعضهم إلى إتيان فعل قوم لوط.

وقد حمل الجهل أقواما فجبوا أنفسهم (قطعوا عضو التذكير) وزعموا أنهم فعلوا ذلك حياء من الله تعالى، وهذه غاية الحماقة، لأن الله شرف الذكر على الأنثى بهذه الآلة، وخلقها لتكون سببا للتناسل، وقطع الآلة لا يزيل شهوة

النكاح من النفس فما حصل لهم مقصودهم.

أرأيت ألاعيب إبليس وحيله مع بنى آدم؟ أرأيت كيف يسقيهم السم فى كأس العسل؟

إن إبليس اللعين يأتى إلى ضعاف الإيمان أو من لم يحصلوا على قسط وافر من العلم أو من شغلوا أنفسهم بعبادة الجوارح عن عبادة القلوب، فيعظهم - وشر المواعظ موعظة إبليس - ويوسوس إليهم بكلام ظاهره المنطق وباطنه الهلاك فيقول لهم: إن الأمور مقدرة فى القدم وأن هناك أقواما خصهم الله بالسعادة وأقواما خصهم بالشقاوة، والسعيد لايشقى والشقى لايسعد والأعمال لا تراد لذاتها بل لاجتلاب السعادة ودفع الشقاوة، فلا وجه لإتعاب النفس فى عمل، ولا وجه لأن نكف النفس عن ملذوذ لأن المكتوب فى القدر واقع لامحالة.

هذا الكلام المعسول يزين للجهال فعل المنكرات وارتكاب المحرمات وترك العبادات ومعصية الخالق، كما أنه رد لجميع الشرائع وإبطال لجميع أحكام الكتب، لأنه إذا قال الله فى القرآن: ﴿ أقيموا الصلاة ﴾ قال الجاهل الذى تأثر بمنطق إبليس: لماذا أصلى؟ إن كنت سعيدا فمصيرى إلى السعادة وإن كنت شقيا فمصيرى إلى الشقاوة فما تنفعنى إقامة الصلاة، وكذلك إذا قال الله فى القرآن: ﴿ ولا تقربوا الزنا ﴾ يقول الجاهل: لماذا أمنع نفسى ملذوذها والسعادة والشقاوة مقضيان قد فرغ منهما، وقد يصل الأمر إلى أن يتساءل الجاهل: وما فائدة إرسال الرسل مادام الذى سيجرى هو ما قدره الله؟

وقد أجاب العلماء بأن للآدمى كسبا هو اختياره فعليه يقع الثواب والعقاب فإذا خالف تبين لنا أن الله عز وجل قضى فى السابق بأن يخالف وإنما يعاقبه على خلافه لا على قضائه، ولهذا يقتل القاتل ولا يعتذر له بالقدر، وقد رد رسول الله ﷺ على أصحابه حين سألوه: ألا نتكل؟ فقال

عليه الصلاة والسلام: "اعملوا فكل ميسر لما خلق له" وإنما ردهم الرسول عن ملاحظة القدر إلى العمل لأن الأمر والنهى حال ظاهر والمقدر من ذلك أمر باطن، وليس لنا أن نترك ما عرفناه من التكليف إلى مالا نعلمه من المقضى، وقول الرسول ﷺ: كل ميسر لما خلق له، إشارة إلى أسباب القدر فإنه من قضى له بالعلم يسر له طلبه وحبه وفهمه، ومن حكم له بالجهل نزع حب العلم من قلبه.

ويوسوس إبليس للجهال: أن الله عز وجل مستغن عن أعمالهم غير متأثر بها معصية كانت أو طاعة، فلماذا تتعبون أنفسكم فى غير فائدة؟

ويقول العلماء: إن من يتوهم أن الله جل وعلا ينتفع بطاعة أو يتضرر بمعصية أو ينال بذلك غرضا فما عرف الله جل جلاله لأنه مقدس ومنزه عن الأعراض والأغراض ومن انتفاع أو ضرر، وإنما نفع الأعمال تعود على أنفسنا كما قال تعالى: ﴿ ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه ﴾ (فاطر: ١٨)، والطبيب يأمر المريض بالدواء لمصلحة المريض لا لمصلحة الطبيب، وكما أن للبدن مصالح من الأغذية ومضار فللنفس مصالح من العلم والجهل والاعتقاد والعمل فالشرع كالطبيب فهو أعرف بما يأمر به من المصالح، وإذا كان الله تعالى غنيا عن أعمالنا كان غنيا أيضا عن معرفتنا له، وقد أوجب علينا معرفته، فكذلك أوجب علينا طاعته، فينبغى أن ننظر إلى أمره لاإلى الغرض منه.

ويوسوس إبليس للجهال: أنه قد ثبت سعة رحمة الله تعالي وهى لا تعجز عنا فلا وجه لحرمان نفوسنا مرادها.

ويجيب العلماء: إن هذا القول يطرح ما جاء به الرسل من الوعيد ويهون ما شددت فى التحذير منه، والله تعالى كما وصف نفسه بالرحمة وصفها بشديد العقاب، وقد رأينا الأنبياء والأولياء يبتلون بالأمراض والجوع، وكيف لا نرتدع وقد خاف الله من قطع لهم بالنجاة، فالخليل ابراهيم عليه السلام يقول

يوم القيامة: نفسى نفسى، وكليم الله موسى عليه السلام يقول: نفسى نفسى، وهذا أبو بكر الصديق رضى الله عنه أول الخلفاء وثانى اثنين إذهما فى الغار وأحد العشرة المبشرين بالجنة يقول: إنى لا آمن مكر الله ولو كانت إحدى قدماى فى الجنة، وعمر بن الخطاب رضى الله عنه ثانى الخلفاء الراشدين وأحد العشرة المبشرين بالجنة، والذى قال له رسول الله ﷺ: "لو عذبنا الله جميعا مانجا منا إلا أنت ياعمر" وقال له: "حتى الشيطان يخاف منك ياعمر" وقال عنه: "لو كان بعدى نبى لكان عمر بن الخطاب، هذا العملاق يقول: الويل لعمر إن لم يغفر الله له".

ويقول الإمام أبو الفرج بن الجوزى رحمه الله: إن من رجا الرحمة تعرض لأسبابها، فمن أسبابها التوبة من الزلل كما أن من رجا أن يحصد زرعاً، وقد قال الله تعالى: ﴿ إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله ﴾ (البقرة: ٢١٨) يعنى أن الرجاء بهؤلاء يليق وأما المصرون على الذنوب وهم يرجون الرحمة فرجاؤهم بعيد، وقد قال الرسول ﷺ: "الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى" ودان نفسه: حاسبها، وقال معروف الكرخى: رجاؤك لرحمة من لا تطيعه خذلان وحمق، ويقول الحسن البصرى: إن قوما غرتهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا ولاحسنة لهم ويقولون: نحن نحسن الظن بالله، وكذبوا، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل.

ويقول الإمام ابن القيم: إن إبليس يشام النفس حتى يعلم أى القوتين تغلب عليها: قوة الإقدام والشجاعة، أم قوة الانكفاف والإحجام والمهانة؟ فإن رأى الغالب على النفس المهانة والإحجام أخذ فى تثبيطه وإضعاف همته وإرادته عن المأمور به وثقله عليه فهون عليه تركه حتى يتركه جملة أو يقصر فيه ويتهاون به، وإن رأى الغالب عليه قوة الإقدام وعلو الهمة أخذ يقلل عنده

المأمور به ويوهمه أنه لا يكفيه وأنه يحتاج معه إلى مبالغة أو زيادة فيقصر بالأول ويتجاوز بالثانى، كما قال بعض السلف: ما أمر الله تعالى بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما إلى تفريط وتقصير، وإما إلى مجاوزة وغلو ولايبالى بأيهما ظفر.

وقد وقع أكثر الناس إلا أقل القليل منهم فى هذين الواديين: وادى التقصير ووادى المجاوزة، والقليل جدا الثابت على الصراط الذى كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه.

فقوم قصر بهم عن الإتيان بواجبات الطهارة، وقوم تجاوز بهم إلى مجاوزة الحد بالوسواس، وقوم قصر بهم عن إخراج الواجب من المال، وقوم تجاوز بهم حتى أخرجوا جميع مافى أيديهم وقعدوا كلا على الناس، وقوم قصر بهم عن تناول مايحتاجون إليه من الطعام والشراب واللباس حتى أضروا بأبدانهم وقلوبهم، وقوم تجاوز بهم حتى أخذوا فوق الحاجة فأضروا بقلوبهم وأبدانهم.

وكذلك قصر بقوم فى مخالطة الناس حتى اعتزلوهم فى الطاعات كالجمعة والجماعة والجهاد والعلم، وتجاوز بقوم حتى خالطوهم فى الظلم والمعاصى والآثام، وقصر بقوم حتى منعهم من الاشتغال بالعلم الذى ينفعهم، وتجاوز بآخرين حتى جعلوا العلم وحده هو غايتهم دون العمل به، وقصر بقوم حتي زين لهم ترك سنة رسول الله ﷺ من النكاح فرغبوا عنه بالكلية، وتجاوز بآخرين حتى ارتكبوا ما وصلوا إليه من الحرام.

هذه حيل إبليس ومكايده لبنى آدم، وهى كما نرى تقوم أساسا على التشكيك فى كل قول وفعل، ثم خلط بين الحلال والحرام وإلباس الحق ثوب الباطل وإلباس الباطل ثوب الحق ليصل فى النهاية إلى إغواء بنى آدم وإضلالهم تنفيذا للعهد الذى قطعه على نفسه ﴿فبعزتك لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين﴾ (ص: ٨٢، ٨٣).

إبليس والمتصوفة

من أخطر الطوائف التى أصابها المس الشيطانى ووقعت فى حبائل إبليس طائفة الصوفية، وهم قوم ابتدعو فى الدين ما ليس منه وضلوا عن الطريق المستقيم وأضلوا العوام، تراهم وقد تركوا الأعمال، وانقطعوا لزيارة الأضرحة وابتدعوا الإحتفال بميلاد الأولياء والعارفين، وليتهم يحتفلون بقراءة القرآن ومدارسة الشريعة وإنما يحتفلون بمواكب الطبل والزمر، ولايذكرون الله تعالى إلا على الأنغام وبالرقص والغناء.

وبلغ من كيد إبليس لهذه الطائفة ما ألقاه إلى جهال المتصوفة من الشطح والطامات فأوقعهم فى أنواع الأباطيل والترهات، وفتح لهم أبواب الدعاوى الهائلات، وأوحى إليهم أن وراء العلم طريقا إن سلكوه أفضى بهم إلى كشف العيان وأغناهم عن التقيد بالسنة والقرآن، فحسن لهم رياضة النفوس وتهذيبها وتصفية الأخلاق والتجافى عما عليه أهل الدنيا والفقهاء وأرباب العلم، والعمل على تفريغ القلب وخلوه من كل شئ حتى ينتقش فيه الحق بلا واسطة تعلم، فلما خلى من صورة العلم الذى جاء به الرسول ﷺ نقش فيه الشيطان بحسب ما هو مستعد له من أنواع الباطل، فإذا أنكر عليهم العلماء ذلك: قالوا لكم العلم الظاهر ولنا الكشف الباطن، ولكم ظاهر الشريعة وعندنا باطن الحقيقة، ولكم القشور ولنا اللباب، فلما تمكن ذلك من قلوبهم سلخها من الكتاب والسنة والآثار كما ينسلخ الليل من النهار، ثم أحالهم في سلوكهم على تلك الخيالات وأوهمهم أنها من الآيات البينات وأنها من قبل الله سبحانه إلهامات فلا تعرض على السنة والقرآن، ولا تعامل إلا بالقبول والإذعان، فلغير الله سبحانه ما يفتحه عليهم الشيطان من الخيالات والشطحات وأنواع الهذيان، وكلما ازدادوا بعدا وإعراضا عن القرآن وما جاء به الرسول كان هذا الفتح على قلوبهم أعظم.

ومن أبلغ ما قيل فى طائفة المتصوفة ما قاله ابن عقيل رضى الله عنه: أنا أذم الصوفية لوجوه يوجب الشرع ذم فعلها، منها أنهم اتخذوا مناخ البطالة وهى الأربطة فانقطعوا إليها عن الجماعات فى المساجد فلا هى مساجد ولا بيوت ولا خانات، وصمدوا فيها للبطالة عن أعمال المعاش، وبدنوا أنفسهم بدن البهائم للأكل والشرب والرقص والغناء، واستمالوا النسوة والمردان بتصنع الصور واللباس فما دخلوا بيتا فيه نسوة إلا ولم يخرجوا إلا عن فساد قلوب النسوة على أزواجهن، وهم يقبلون الطعام والنفقات من الظلمة والفجار وغاصبى الأموال، ويخالطون النسوة الأجانب ينصبون لذلك حجة إلباسهن الخرقة، ويستحلون بل يوجبون اقتسام ثياب من طرب فسقط ثوبه، ويسمون الطرب وجدا والدعوة وقتا، واقتسام ثياب الناس حكما، ولايخرجون عن بيت دعوا إليه إلا عن إلزام صاحبه دعوة أخرى يقولون إنها وجبت، واعتقاد ذلك كفر وفعله فسوق، ويعتقدون أن الغناء بالقضبان قربة وهذا كفر أيضا، لأن من اعتقد المكروه والحرام قربة كان بهذا الاعتقاد كافرا، والناس بين تحريمه وكراهيته ويسلمون أنفسهم إلى شيوخهم، والشيخ لايعترض عليه فإن قبل أمردا قيل رحمة، وإن خلا بأجنبية قيل بنته وقد لبست الخرقة، وإن قسم ثوبا على غير أربابه من غير رضا مالكه قيل حكم الخرقة، وليس لنا شيخ غير داخل في التكليف، ولو كان هناك شيخ يسلم إليه حاله لكان ذلك الشيخ أبا بكر الصديق رضى الله عنه وقد قال: إن اعوججت فقومونى ولم يقل فسلموا إلىّ، ثم انظر إلى الرسول ﷺ كيف اعترضوا عليه؟ فهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: ما بالنا نقصر وقد أمنا؟ وآخر يقول: تنهانا عن الوصال وتواصل، وآخر يقول: أمرتنا بالفسخ ولم تفسخ، ثم إن الله تعالى تقول له الملائكة: ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾(البقرة: ٣٠) ويقول موسى عليه السلام: ﴿أتهلكنا بما فعل السفاء منا﴾ (الأعراف: ١٥٥)، لكن

الصوفية جعلوا من عدم الاعتراض على شيوخهم ترفيها لقلوب المتقدمين وسلطة على الأتباع والمريدين كما قال تعالى عن فرعون: ﴿فاستخف قومه فأطاعوه﴾ (الزخرف: ٥٤) ولعل هذه الكلمة من القائلين منهم بأن العبد إذا عرف لم يضره ما فعل هى نهاية الزندقة، لأن الفقهاء أجمعوا على أنه لا حالة ينتهى إليها العارف إلا ويضيق عليه التكليف كأحوال الأنبياء يضايقون فى الصغائر، فالله الله فى الإصغاء إلى هؤلاء الفرغ الخالين من الإثبات، وإنما هم زنادقة جمعوا بين مدارع العمال مرقعات وصوف، وبين أعمال الخلعاء الملحدة أكل وشرب ورقص وسماع وإهمال لأحكام الشرع، ولم تتجاسر الزنادقة أن ترفض الشريعة حتى جاءت المتصوفة فجاءوا بوضع أهل الخلاعة.

فأول ماوضعوا أسماء وقالوا حقيقة وشريعة، وهذا قبيح لأن الشريعة ماوضعه الحق لمصالح الخلق، فما الحقيقة بعدها سوى ماوقع فى النفوس من إلقاء الشياطين، وكل من رام الحقيقة فى غير الشريعة فمغرور ومخدوع، وإن سمعوا أحدا يروى حديثا قالوا: مساكين أخذوا علمهم ميتا عن ميت وأخذنا علمنا عن الحى الذى لايموت، فمن قال حدثنى أبى عن جدى، قالوا حدثنى قلبى عن ربى فهلكوا وأهلكوا بهذه الخرافات، وبغضهم الفقهاء أكبر الزندقة لأن الفقهاء يحذرونهم بفتاويهم عن ضلالهم وفسقهم، والحق يثقل كما تثقل الزكاة، والفقهاء كالأطباء والنفقة فى ثمن الدواء صعبة.، والنفقة على هؤلاء كالنفقة على المغنيات وما أخف البذل على المغنيات وإعطاء الشعراء على المدائح، وقد أبدلوا إزالة العقل بالخمر بشئ سموه الحشيش، والغناء المحرم سموه السماع والوجد، والتعرض بالوجد المزيل للعقل حرام. كفى الله الشريعة شر هذه الطائفة الجامعة بين دهمشة فى اللبس وطيبة فى العيش وخداع بألفاظ معسولة ليس تحتها سوى إهمال التكليف وهجران الشرع، ولا دلالة على أنهم أرباب باطل أوضح من محبة طباع الدنيا لهم كمحبتهم أرباب اللهو والمغنيات.

وهل يخدع الناس إلا بطريقة أو لسان، فإذا لم يكن للقوم قدم فى العلم ولا طريقة فبماذا يجتذبون قلوب أرباب المال.

واعلم أن حمل التكليف صعب، ولا أسهل على أهل الخلاعة من مفارقة الجماعة، ولا أصعب عليهم من حجر ومنع صدر عن أوامر الشرع ونواهيه، وما على الشريعة أضر من المتكلمين والمتصوفين فهؤلاء يفسدون الأعمال ويهدمون قوانين الأديان، يحبون البطالات وسماع الأصوات، وما كان السلف كذلك بل كانوا فى باب العقائد عبيد تسليم، وفى الباب الآخر أرباب جد، ونصيحتى لإخوانى ألا يقرع أفكار قلوبهم كلام المتكلمين ولا تصغى مسامعهم إلى خرافات المتصوفين، بل الشغل بالمعاش أولى من بطالة الصوفية، والوقوف على الظواهر أحسن من توغل المنتحلة، وقد خبرت طريقة الفريقين فغاية هؤلاء الشك وغاية هؤلاء الشطح، فمن قالوا عن أصحاب الحديث: أخذوا علمهم ميتا عن ميت فقد طعنوا فى النبوات، ومن قال: حدثنى قلبى عن ربى فقد صرح أنه غنى عن الرسول ومن صرح بذلك فقد كفر، وما يؤمن هذا القائل حدثنى قلبى عن ربى أن يكون ذلك من إلقاء الشياطين فقد قال الله عز وجل: ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ﴾ (الأنعام: ١٢١)، وهذ هو الظاهر لأنه ترك الدليل المعصوم وعول على ما يلقى فى قلبه الذى لم تثبت حراسته من الوساوس.

والخوارج على الشريعة كثير، إلا أن الله عز وجل يؤيدها بالنقلة الحفاظ الذابين عن الشريعة حفظا لأصلها، وبالفقهاء لمعانيها وهم سلاطين العلماء فلا يتركون لكذاب رأسا ترتفع.

وساوس إبليس للعوام

سبق القول بأن العلم نور وأن إبليس اللعين يحسن للإنسان إطفاء النور ليتمكن منه فى الظلمة، ولا ظلمة كظلمة الجهل، لذلك كانت قوة إبليس فى التشكيك والتلبيس والمس تأتى على قدر قوة الجهل عند الإنسان، وقد افتن إبليس فيما فتن به العوام من بنى آدم، فمن ذلك أنه يأتى إلى العامى فيحمله على التفكر فى ذات الله عز وجل وصفاته فيتشكك، وقد روى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ أخبر عن ذلك فقال: "تسألون حتى تقولوا هذا الله خلقنا فمن خلق الله" يقول أبو هريرة رضى الله عنه: فوالله إنى لجالس يوما إذ قال رجل من أهل العراق لى: هذا الله خلقنا فمن خلق الله؟ فجعلت أصبعى فى أذنى ثم صحت: صدق رسول الله، الله الواحد الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد.

وبإسناد عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ : "إن الشيطان يأتى أحدكم فيقول: من خلقك؟ فيقول: الله، فيقول: من خلق السموات والأرض؟ فيقول: الله، فيقول: من خلق الله؟ فإذا وجد أحدكم شيئا من ذلك فليقل: آمنت بالله ورسوله".

وقد وقعت هذه المحنة لغلبة الحس وهو أن العامى ما رأى شيئا إلا مفعولا ويقول العلماء لهذا العامى: ألست تعلم أن الله خلق الزمان لا فى الزمان والمكان لا فى المكان، فإذا كانت هذه الأرض وما فيها لا فى مكان ولاتحتها شئ وحسك ينفر من هذا لأنه ما ألف شيئا إلا فى مكان، فلا يطلب بالحس من لايعرف بالحس وشاور عقلك فإنه سليم المشاورة.

وتارة يشكك إبليس العوام عند سماع صفات الله كالسميع والبصير فيحملونها على مقتضى الحس فيعتقدون التشبيه.

وتارة يلبس عليهم من جهة العصبية للمذهب فترى العامى يلاعن ويقاتل

فى أمر لايعرف حقيقته، وكم جرى فى هذا من حروب، وحروب أهل الكوفة وأهل البصرة على مر السنين وماجرى خلالها من قتل وإحراق مدن شاهدة على ذلك والسبب إبليس اللعين، بل لقد وصل الأمر به إلي أن جعل العاصى يعترض على تدبير العليم الحكيم، فمنهم من يقول: لِمَ ضيّق الله رزق المتقى وأوسع على العاصى؟ ومنهم من يقول: كيف قضى وعاقب؟ ومنهم من يستبعد البعث ومنهم من يبتلى ببلاء فيكفر، ومنهم من يرضى عن عقل نفسه فلا يبالى بمخالفة العلماء فمتى خالفت فتواهم غرضه أخذ يرد عليهم ويقدح فيهم، ومنهم من يقدم المتزهدين على العلماء فلو رأوا جبة صوف على أجهل الناس عظموه خصوصا إذا طأطأ رأسه وتخشع لهم ويقولون: أين هذا من فلان العالم ذاك طالب الدنيا وهذا زاهد لا يأكل عنبة ولا رطبة ولا يتزوج قط جهلا منهم بفضل العالم على الزاهد وإيثارا للمتزهدين على شريعة محمد ﷺ.

ومنهم من يطلقون أنفسهم فى المعاصى ويقولون إن الرب كريم والعفو واسع والرجاء من الدين فيسمون تمنيهم واغترارهم رجاء، وهذا الذى أهلك عامة المذنبين، قال أبو عمرو بن العلاء: بلغنى أن الفرزدق جلس إلى قوم يتذكرون رحمة الله فكان أوسعهم رجاء لرحمة الله، فقالوا له: لم تقذف المحصنات؟ فقال: أخبرونى لو أذنبت إلى والدى ما أذنبته إلى ربى عز وجل أتراهما كانا يطيبان نفسا أن يقذفانى فى تنور مملوءٍ جمرا؟ قالوا: لاإنما كانا يرحمانك قال: فإنى أوثق برحمة ربى منهما، يقول الإمام أبو الفرج ابن الجوزى رحمه الله هذا هو الجهل المحض لأن رحمة الله عز وجل ليست برقة طبع ولو كانت كذلك لما ذبح عصفور ولا أميت طفل ولا أدخل أحد إلى جهنم.

وقال الأصمعى: كنت مع أبى نواس بمكة المكرمة فإذا أنا بغلام أمرد يستلم الحجر الأسود فقال لى أبو نواس: والله لا أبرح حتى أقبله عند الحجر الأسود،

فقلت: ويلك، اتق الله فإنك ببلد حرام وعند بيته الحرام، فقال: مامنه بد، حجر جاء الغلام يستلمه فبادر أبو نواس فوضع خده على خد الغلام فقبله وأنا أنظر، فقلت: ويلك أفي حرم الله عز وجل فقال: دع هذا عنك فإن ربي رحيم. انظروا إلى هذه الجرأة التي نظر فيها إلى الرحمة ونسي شدة العقاب بانتهاك تلك الحرمة. لقد دخلوا على أبي نواس في مرض موته فقالوا له: تب إلى الله عز وجل، فقال: إياي تخوفون؟ حدثني حماد بن سلمة عن يزيد الرقاشي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ : "لكل نبي شفاعة وإني اختبأت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي" أفترون لا أكون أنا منهم؟!

وهذا الرجل أخطأ من وجهين: أحدهما أنه نظر إلى جانب الرحمة ولم ينظر إلى جانب العقاب، والثاني أنه نسي أن الرحمة إنما تكون للتائب كما قال الله عز وجل: ﴿ وإني لغفار لمن تاب ﴾ (طه: ٨٢) وكما قال: ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ﴾ (الأعراف: ١٥٦) وهذا التلبيس الشيطاني هو الذي يهلك العوام.

وقد سمع ابن عقيل رجلا يقول: من أنا حتى يعاقبني الله؟ فقال له: أنت الذي لو أمات الله جميع الخلائق وبقيت أنت كان قول الله تعالى: ﴿ يا أيها الناس ﴾ خطابا لك، وقال الحسن رضي الله عنه: إذا نظر إليك الشيطان ورآك على غير طاعة الله نعاك، وإذا رآك مداوما على طاعة الله ملّك ورفضك، وإذا رآك مرة هكذا ومرة هكذا طمع فيك.

والشفاعة لا تكون إلا لمن تاب ورضي الله عنه، يقول تعالى: ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ (الأنبيا: ٢٨) ولذلك لما أراد نوح عليه السلام حمل ابنه في السفينة قيل له: ﴿ إنه ليس من أهلك ﴾ (هود: ٤٦) وقد قال ﷺ لفاطمة رضي الله عنها: "اعملي يافاطمة فلن أغني عنك من الله شيئا".

ومن العوام من يعتمد على نافلة ويضيع فرائض كمن يحضر إلى المسجد

قبل الأذان ويتنفل فإذا صلى مأموما سابق الإمام فى الركوع والسجود، ومنهم من لا يحضر فى أوقات الفرائض ويزاحم فى صلاة القيام، ومنهم من يتعبد ويبكى وهو مصر على الفواحش لايتركها، فإن قيل له قال سيئة وحسنة والله غفور رحيم، ومنهم من يداومون على حضور مجالس الذكر ويبكون ويخشعون ولايتغير أحدهم عما قد اعتاده من المعاملة فى الربا والغش فى البيع والجهل بأركان الصلاة والغيبة للمسلمين والعقوق للوالدين، وهؤلاء أوهمهم إبليس أن حضور مجالس الذكر والبكاء يدفع عنهم مايلابسهم من الذنوب.

أما أصحاب الأموال من العوام فقد جعلهم إبليس لايبالون من أين اكتسبوها ولاكيف حصلوا عليها. وقد فشا الربا فى أكثر معاملاتهم وآنسوه وامتنعوا عن إخراج الزكاة اتكالا على العفو واحتالوا لاسقاطها كأن يهبوا المال قبل الحول ثم يستردونه، أو يعطون الزكاة لمن يستخدمونه طول السنة فهى فى الحقيقة أجرة وليست زكاة، وقد روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: "ليأتين على الناس زمان لايبالى المرء من أين أخذ المال من حلال أو حرام" وباسناد عن الضحاك عن ابن عباس قال: أول ماضرب الدرهم أخذه إبليس فقبله ووضعه على عينه وسرته وقال: بك أطغى وبك أكفر، رضيت من ابن آدم حبه الدينار من أن يعبدنى.

وروى الأعمش عن شقيق عن عبد الله قال: إن الشيطان يرد الإنسان بكل ريدة فإذا أعياه اضطجع فى ماله فيمنعه أن ينفق منه شيئا، وهو بذلك قد أكسبه صفة البخل وهى من الصفات الذميمة التى توعد الله سبحانه أصحابها فقال: ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ماكنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾ (التوبة: ٣٤ـ ٣٥) فإذا فشلت خطة إبليس فى منع الإنسان من منع الإنفاق والتقتير على نفسه

وعلى غيره جعله يبذر ويسرف ويهدر المال فى غير وجهه الصحيح وبذلك ينطبق عليه قول الله عز وجل: ﴿ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا ﴾ (الإسراء: ٢٧) ولذلك كانت الحكمة كلها فى قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ﴾ (الإسراء: ٢٩) وباسناد عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "يا ابن آدم لاتزول قدماك يوم القيامة بين يدى الله عز وجل حتى تسأل عن أربع: عمرك فيما أفنيته وجسدك فيما أبليته ومالك من أين اكتسبته وأين أنفقته".

ومن أثرياء العوام من جعله إبليس ينفق المال بقصد الرياء والسمعة وبقاء الذكر، فإذا بنى مسجدا أو مستشفى أو سبيلا اهتم بكتابة اسمه عليه ولو كان عمله لله سبحانه لاكتفى بعلمه عز وجل، وإذا تصدق أعطى الفقير أمام الناس فيجمع بين قصده مدحهم له وبين إذلال الفقير، أو يتصدق على الأجانب ويترك بر الأقارب وهم أولى، وقد قال سليمان بن عامر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "الصدقة على المسكين صدقة والصدقة على ذوى الرحم اثنتان: صدقة وصلة" وبعض الناس يتصدق ويضيق على أهله فى النفقة، وقد روى جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ أنه قال: "أفضل الصدقة ما كان عن ظهر غنى وابدأ بمن تعول" ومنهم من يجور فى وصيته ويحرم الوارث ويرى أنه ماله يتصرف فيه كيف يشاء، وقد روى أبو أمامة أن رسول الله ﷺ قال: "من حاف فى الوصية قذف فى الوباء" والوباء واد في جهنم، وروى الأعمش عن خيثمة أن رسول الله ﷺ قال: "إن الشيطان يقول: ماغلبنى عليه ابن آدم فلن يغلبنى على ثلاث: آمره أن يأخذ المال من غير حقه، وآمره بإنفاقه فى غير حقه، ومنعه من حقه".

ولم يترك إبليس بابا لابن آدم إلا طرقه، وقد ذكرنا أن أكثر وساوسه ومسه

وتلبيسه تقع على العوام والجهال، وقد جعلهم يعتادون أفعالا لاتمت للدين بصلة حتى أصبحت هذه الأفعال عرفا يجرى كل يوم وأصبحت بالتالى واقعا نعيشه ونراه، من ذلك أن البعض يذهب إلى العرافين الذين يدعون علمهم بالغيب ويسألونهم عن أشياء ويسمعون منهم ويصدقونهم، وفى صحيح مسلم عن النبى ﷺ أنه قال: "من أتى عرافا فسأله عن شئ لم تقبل له صلاة أربعين ليلة"، وأخرج أبو داود عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "من أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد برئ بما أنزل على محمد".

والبعض يكثر من الأيمان الحانثة وخاصة فى مسائل البيع والشراء والمعاملات والبعض يلبس الحرير ويتحلى بالذهب، والبعض يرى المنكر فلا ينكره حتى أن الرجل يرى أخاه أو قريبه أو صاحبه يشرب الخمر أو يلعب الميسر أو يرتاد أماكن اللهو والفجور أو يترك الصلاة أو يجاهر بالإفطار فى رمضان أو يمنع الزكاة فلا ينكر عليه ذلك ولايتغير بل يخالطه مخالطة حبيب، والبعض يجلس فى الطرقات ولايعطى الطريق حقه فلا يترك مكانا لعبور الناس ولايغض البصر عن النساء المارات، والبعض لايراعى حقوق الجار التى أوضحها وبينها الإسلام وهى زيارته إذا مرض وتشييعه إلى مثواه الأخير إذا مات، والفرح له إذا كان فى خير والحزن عليه إذا أصابته شدة أو ضيق، حتى أن الإسلام أمر الجار ألا يرتفع ببناء بيته فيمنع الريح عن جاره إلا إذا أذن له فى ذلك، بل إن من آداب الجيرة ألا يدخل الرجل على أولاده بفاكهة أو حلوى إلا إذا أعطى جاره منها وإلا فليدخل بها سرا، ويبلغ من حرص الإسلام على الجار أن النبى ﷺ قال: "الأربعون جارا" وقد فسر العلماء قول رسول الله ﷺ هذا بأن الإنسان مسئول عن مائة وستين جارا، أربعون من الأمام وأربعون من الخلف وأربعون من اليمين وأربعون من الشمال، وقال عليه الصلاة والسلام: "والله لايؤمن من لم يأمن جاره بوائقه" أى شره وأذاه، وقال:

"والله لايؤمن من بات شبعان وجاره جائع" بل إن رسول الله ﷺ لخص أسلوب معاملة الجار فى حديث قصير رائع: "مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه".

وبعض الناس يتباهى بالمغالاة فى تكفين الميت وإقامة سرادقات العزاء وإحضار مشاهير القراء وهى أشياء لاتعود على الميت بأى نفع وفيها إضاعة للمال الذى قد يكون الورثة فى أشد الحاجة إليه، وقد قال عليه الصلاة والسلام: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله عن الدنيا إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له" وكل هذه العادات السيئة وغيرها رسخها إبليس فى نفوس العوام والجهال مستغلا عدم إلمامهم بأحكام الشرع وعدم تعمقهم فى أمور دينهم.

أما النساء فإن إبليس لم يكتف بتجنيد أكثرهن لخدمة أهدافه الخبيثة، وجعلهن بمثابة الطعم الذى يصطاد به ضحاياه، وإنما لبس عليهن أيضا فى أمور دينهن، فمثلا تطهر المرأة من الحيض بعد الزوال فتغتسل بعد العصر فتصلى العصر وحده وقد وجب عليها الظهر وهى لاتعلم، وفيهن من تؤخر غسل الجنابة فى الليل حتى تطلع الشمس، وفيهن من تخلع ثيابها أمام نساء أخريات سواء كن من الأقارب أو من الجيران مع أن الشرع لايحل للمرأة أن تنظر من المرأة مابين سرتها وركبتها ولو كانت ابنتها أو أمها أو أختها، ومنهن من تصلى قاعدة وهى تقدر على القيام فالصلاة حينئذ باطلة، وقد ينكشف منها ما يبطل صلاتها وتستهين به، ومنهن من تستهين باسقاط الحبل ولا تدرى أنها إذا اسقطت ماقد نفخ فيه الروح فقد قتلت مسلما ولزمتها الكفارة، والكفارة حينئذ أن تتوب وتؤدى ديته إلى ورثته ولاترث هى شيئا منها، ثم تعتق رقبة فإن لم تجد صامت شهرين متتابعين.

ومنهن من قد تسئ عشرة زوجها وربما كلمته بالمكروه وتنسى أنها لن

تدخل الجنة يوم القيامة إلا بإذن زوجها، وتنسى قول رسول الله ﷺ: "لو كان السجود لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها" ومنهن من تخرج من بيتها بغير إذن زوجها وتقول ماخرجت فى معصية وهى لاتعلم أن خروجها بغير إذنه معصية وأن خروجها لا يؤمن منه فتنة، ومنهن من تلازم القبور وتحد على غير الزوج، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: "لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا" ومنهن من يدعوها زوجها إلى فراشه فتأبى وتظن هذا الخلاف ليس بمعصية وهى منهية عنه، فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: "إذا دعا الرجل زوجته إلى فراشه فأبت فباتت وهو عليها ساخط لعنتها الملائكة حتى تصبح" ومنهن من تفرط فى مال زوجها ولايحل لها أن تخرج من بيته شيئا إلا أن يأذن لها أو تعلم رضاه عنه.

وكل هذه الأشياء وغيرها وراءها إبليس اللعين الذى نذر نفسه لغواية بنى آدم وإضلالهم بشتى الوسائل وكافة الحيل، لذلك نجد أن الله عز وجل أمرنا بالاستعاذة منه فقال تعالى: ﴿ قل أعوذ برب الناس• ملك الناس• إله الناس• من شر الوسواس الخناس• الذى يوسوس فى صدور الناس• من الجنة والناس ﴾ (الناس: ١ـ ٦).

إبليس والطلاق والتحليل

شرع الله الطلاق لحكمة يعلمها سبحانه ولمعرفته جل جلاله بأسرار النفس البشرية وخباياها، وجعله مرتين رحمة منه بعباده، ومع ذلك فإنه عز وجل يبغضه أشد البغض، يقول رسول الله ﷺ: "إن أبغض الحلال عند الله الطلاق" فلماذا حلله ولماذا يبغضه؟ حلله لأنه وسيلة من وسائل تأديب الزوجة وإصلاح شأنها، ويبغضه لأن له آثارا سيئة ومدمرة على الأسرة والمجتمع، فهو يوقع العداوة والبغضاء بين الأسر المسلمة وينشئ أجيالا غير سوية مليئة بالأحقاد والضغائن.

ورغم أن الطلاق حلال إلا أن الإسلام وضع قيودا شديدة على الرجل قبل أن يلجأ إلى تطليق زوجته، بل جعل الطلاق آخر الحلول وليس أولها، فقد أمر الإسلام الرجل بأن يعظ زوجته أولا ويبين لها الخطأ والصواب بهدوء وبغير سباب أو شتائم، فإذا لم يجد الوعظ والنصح فله أن يهجرها فى الفراش يوما أو يومين أو أكثر ليشعرها بخطئها حتى تراجع نفسها وتعيد حساباتها، فإن لم يظهر للهجر نتيجة فله أن يضربها ضربا غير مبرح حتى يعيد إليها اتزانها وتعرف جسامة خطئها، يقول تعالى: ﴿واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن﴾، وحتى إذا لم تجد هذه الوسائل ـ الوعظ والهجر والضرب ـ فعلى الرجل ألا يلجأ للطلاق وإنما هناك وسيلة أخرى وهى التحكيم "حكما من أهله وحكما من أهلها" يجتمع الحكمان ويسمعان شكوى الزوج والزوجة ويحاولان الإصلاح جهدهما فإن وفقهما الله فذاك فضل ونعمة وإلا ترك الأمر للزوج ليقرر مايراه وله فى هذه الحالة أن يلجأ إلى أبغض الحلال ـ الطلاق ـ الذى جعله الله تعالى أيضا وسيلة من وسائل الإصلاح فقد يكون فيه العلاج الناجع لكلا الزوجين والدواء الشافى لأمراضهما.

ومن رحمة الله تعالى بعباده أنه أعطى للزوج حق مراجعة زوجته مادامت فى عدته، فإذا انتهت عدتها جاز له إعادتها إلى عصمته بشرط موافقتها، فإذا حدث الجفاء وانفجرت المشاكل ثانية فعليه أن يعيد الكرة" الوعظ والهجر والضرب والتحكيم ثم بعد ذلك الطلاق الثانى، وله أيضا بعد هذا الطلاق حق المراجعة وحق الإعادة إلى عصمته، فإذا تكررت المشاكل وعاد الجفاء بين الزوجين فعليه أن يعود إلى الوعظ والهجر والضرب والتحكيم ثم الطلاق الثالث فى نهاية المطاف، إلا أنها فى هذه المرة لاتحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره.

وشرط التحليل فى هذه المرة أن تتزوج المرأة برجل آخر زواجا عاديا مستقرا آمنا مطمئنا، فإذا حدث جفاء بين الزوجين واستحالت العشرة بينهما ولجأ الرجل إلى الوسائل الشرعية: الوعظ والهجر والضرب والتحكيم ولم يفلح ذلك كله فأوقع الطلاق ولم يراجعها وهى فى عدته، فى هذه الحالة فقط يحل لزوجها الأول أن يعقد عليها بموافقتها.

لكن إبليس اللعين لايترك هذه الفرصة تذهب سدى وهو الذى فى الأصل أوقع العداوة والبغضاء بين الزوجين وجعل الرجل يطلق زوجته مرة ثم مرة ثم مرة حتى تحرم عليه، فيأتى إلى الرجل ويشعل قلبه بالعاطفة والحنين لمطلقته ويذكره بالأيام السعيدة التى عاشها معها وبسهرها الدائم على راحته وراحة أولاده، وأنه تسرع فى إيقاع الطلاق فهى لم تكن تستحق منه ذلك، وأنه لابد للبحث عن وسيلة لإعادتها إلى عصمته، والوسيلة موجودة وسهلة وميسورة وهى "المحلل" رجل يتزوجها باتفاق مسبق لمدة معينة ثم يطلقها فيكون بذلك قد تحقق الشرط الوارد فى قوله تعالى: ﴿فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره﴾ (البقرة: ٢٣٠) ويستطيع أن يعيدها إلى عصمته وتنتهى المشكلة.

أرأيت كيف يلبس إبليس على الرجال فى أمور دينهم وكيف يتخذ آيات الله هزوا ؟

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: من مكايد إبليس التى بلغ فيها مراده مكيدة التحليل الذى لعن رسول الله ﷺ فاعله وشبهه بالتيس المستعار، وعظم بسببه العار والشنار، وعير المسلمين به الكفار، وحصل به من الفساد مالا يحصيه إلا رب العباد، ولو كان هذا نكاحا صحيحا لم يلعن رسول الله من أتى به فالنكاح سُنَّه وفاعل السنة مقرب غير ملعون، و المحلل مع وقوع اللعنة عليه بالتيس المستعار مقرون، فلو شاهدت الحرائر المصونات على حوانيت المحللين متبذلات حتى إذا تشارطا على مايجلب اللعنة والمقت نهض واستتبعها خلفه للوقت بلا زفاف ولا إعلان، بل بالتخفى والكتمان فلا جهاز ولافراش ولا مهر مقبوض ولا مؤخر، ولانفقة ولاكسوة تقدر، ولا وليمة ولادف ولاشعار، والزوج يبذل المهر وهذا التيس يطأ بالأجر حتى إذا خلا بها وأرخى الحجاب، والمطلق والولى واقفان على الباب، دنا منها ليطهرها بمائه النجس الحرام، ويطيبها بلعنة الله ورسوله عليه الصلاة والسلام، حتى إذا قضيا عرس التحليل فإن كان قد قبض أجرةضرابه سلفا وتعجيلا، وإلا حبسها حتى تعطيه أجره طويلا، وكثير من هؤلاء المتستأجرين للضراب يحلل الأم وابنتها فى عقدين، ويجمع ماءه فى أكثر من أربع وفى رحم أختين، وإذا كان هذا شأنه وتلك صفته فهو حقيق بما رواه عبد الله بن مسعود رضى الله عنه حيث قال: "لعن رسول الله ﷺ المحلل والمحلل له" رواه الحاكم، وروى الإمام أحمد فى مسنده: "لعن رسول الله ﷺ الواشمة والمؤتشمة والواصلة والموصولة والمحلل والمحلل له وآكل الربا ومؤكله" وروى ابن عباس قال: "سئل رسول الله ﷺ عن المحلل فقال: لا، إلا نكاح رغبة لا نكاح دلسة ولا استهزاء بكتاب الله، ثم تذوق العسيلة" رواه أبو إسحاق الجوزجانى فى كتاب المترجم،

وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "ألا أخبركم بالتيس المستعار؟ قالوا: بلى يارسول الله، قال: هو المحلل، لعن الله المحلل والمحلل له" رواه ابن ماجة.

وعن عمرو بن دينار أنه سئل عن رجل طلق امرأته فجاء رجل من أهل القرية بغير علمه ولا علمها فأخرج شيئا من ماله فتزوجها ليحلها له، فقال: لا ثم ذكر أن النبى ﷺ سئل عن مثل ذلك فقال: "لا حتى ينكح مرتغبا لنفسه، فإذا فعل ذلك لم يحل له حتى يذوق العسيلة" رواه أبو بكر ابن أبى شيبة فى المصنف، وروى نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رجلا قال له: امرأة تزوجتها أحلها لزوجها لم يأمرنى ولم يعلم، قال: لا.. إلا نكاح رغبة إن أعجبتك أمسكتها وإن كرهتها فارقتها وإن كنا لنعد هذا على عهد رسول الله ﷺ سفاحا، ذكره شيخ الإسلام فى إبطال التحليل، وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال: لا أوتى بمحلل ولا محللة إلا رجمتهما" رواه ابن المنذر فى الأوسط، وقال عبد الرازق: أخبرنا الثورى عبد الله بن شريك الغامرى قال: سمعت ابن عمر رضى الله عنهما سئل عن رجل طلق ابنة عم له ثم رغب فيها وندم فأراد أن يتزوجها رجل يحللها له، فقال ابن عمر: كلاهما زان وإن مكث عشرين سنة أو نحو ذلك إذا كان يعلم أنه يريد أن يحلها له، وسأل رجل ابن عباس رضى الله عنه فقال: إن عمى طلق امرأته ثلاثا، فقال: إن عمك عصى الله فأندمه وأطاع الشيطان فلم يجعل له مخرجا، قال: كيف ترى فى رجل يحللها؟ قال: من يخادع الله يخدعه.

وقال قتادة: إذا نوى الناكح أو المنكح أو المرأة أو أحد منهم التحليل فلا يصح، وقال ابراهيم النخعى: إذا كان نية أحد الثلاثة الزوج الأول أو الزوج الآخر أو المرأة أنه محلل فنكاح الآخر باطل ولا تحل للأول، وقال سعيد بن المسيب فى رجل تزوج امرأة ليحلها لزوجها الأول ولم يشعر بذلك زوجها الأول

ولا المرأة، قال: إن كان إنما نكحها ليحلها فلا يصلح ذلك لهما ولا تحل له، رواه حرب فى مسائله، وقال الجوزجانى: حدثنا إسماعيل ابن سعيد قال: سألت أحمد ابن حنبل عن الرجل يتزوج المرأة وفى نفسه أن يحللها لزوجها الأول ولم تعلم المرأة بذلك فقال: هو محلل وإذا أراد بذلك الإحلال فهو ملعون.

وقد لبس إبليس على البعض بمعارضة هذه الأحاديث والآثار عن الصحابة بقول الله عز وجل: ﴿ فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره﴾(البقرة: ٢٣٠) وجعل بعضهم يقول: نحن نحتج بكونه سماه محللا فلولا أنه أثبت الحل لم يكن محللا، وهذا البعض يأخذ بظواهر الأمور دون الغوص فى جوهرها لأن هذا التخريج يعنى أن رسول الله ﷺ لعن من فعل السنة التى جاء بها، وإنما سماه محللا لأنه أحل ماحرم الله فاستحق لعنة الله، فإن الله سبحانه حرمها على المطلق حتى تنكح زوجا غيره، والنكاح اسم فى كتاب الله وسنة رسوله للنكاح الذى يتعارفه الناس بينهم نكاحا وهو الذى شرع إعلانه والضرب عليه بالدفوف، والوليمة فيه، وجعل للإيواء والسكن وجعله الله مودة ورحمة، وجرت العادة فيه بضد ماجرت به فى نكاح المحلل، فإن المحلل لم يدخل على نفقة ولاكسوة ولا سكنى ولا إعطاء مهر ولا يحصل به نسب ولاصهر ولا قصد المقام مع الزوجة، وإنما دخل عارية كالتيس المستعار للضراب، ولهذا شبهه به النبى ﷺ ثم لعنه، فعلم قطعا لاشك فيه أنه ليس هو الزوج المذكور فى القرآن، فكيف يدخل هذا فى النكاح الذى شرعه الله ورسوله وأحبه وأخبر أنه سنته ومن رغب عنه فليس منه؟

وإذا كان الله تعالى ورسوله قد حرم نكاح المتعة مع أن قصد الزوج الاستمتاع بالمرأة وأن يقيم معها زمانا وهو ملتزم لحقوق النكاح فالمحلل الذى ليس له غرض أن يقيم مع المرأة إلا قدر ماينزو عليها كالتيس المستعار لذلك ثم يفارقها أولى بالتحريم.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: نكاح المتعة خير من نكاح التحليل من عدة وجوه، أحدها: أن نكاح المتعة كان مشروعا فى أول الإسلام ونكاح التحليل لم يشرع فى زمن من الأزمان، والثانى: أن الصحابة تمتعوا على عهد النبى ﷺ ولم يكن فى الصحابة محلل قط، والثالث: أن نكاح المتعة مختلف فيه بين الصحابة فأباحه ابن عباس وإن قيل أنه رجع عنه، وأباحه عبد الله ابن مسعود، ففى الصحيحين عنه قال: كنا نغزوا مع رسول الله ﷺ وليس لنا نساء فقلنا: ألا نختصى؟ فنهانا عن ذلك، ثم رخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب إلى أجل، ثم قرأ عبد الله: ﴿ ياأيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ما أحل الله لكم ﴾ (المائدة: ٨٧) وفتوى ابن عباس بها مشهورة، والرابع: أن رسول الله ﷺ لم يجئ عنه فى لعن المتمتع والمستمتع بها حرف واحد، وجاء عنه فى لعن المحلل والمحلل له وعن الصحابة كثير، والخامس: أن المستمتع له غرض صحيح فى المرأة ولها غرض أن تقيم معه مدة النكاح فغرضه المقصود بالنكاح مدة، والمحلل لا غرض له سوى أنه مستعار للضراب كالتيس فنكاحه غير مقصود له ولا للمرأة ولا للولى وإنما هو كما قال الحسن: مسمار نار فى حدود الله، والسادس: أن المستمتع لم يحتل على تحليل ماحرم الله فليس من المخادعين الذين يخادعون الله كأنما يخادعون الصبيان، بل هو ناكح ظاهرا وباطنا، والمحلل ماكر مخادع متخذ آيات الله هزوا، ولذلك جاء فى وعيده ولعنه مالم يجئ فى وعيد المستمتع مثله ولا قريب منه، والسابع: أن المستمتع يريد المرأة لنفسه وهذا سر النكاح ومقصوده فيريد بنكاحه لها حلها له ولايطؤها حراما، والمحلل لايريد حلها لنفسه وإنما يريد حلها لغيره ولهذا سمى محللا وهذا ضد شرع الله ودينه، والثامن: أن الفطر السليمة والقلوب التى لم يتمكن منها مرض الجهل والتقليد تنفر من التحليل أشد نفار، وتعير به أعظم تعيير حتى أن كثيرا من النساء تعير المرأة به أكثر مما تعيرها

بالزنا، ونكاح المتعة لاتنفر منه الفطر والعقول ولو نفرت منه لم يبح فى أول الإسلام، والتاسع: أن نكاح المتعة يشبه إجارة الدابة مدة للركوب وإجارة الدار مدة للانتفاع والسكنى، وإجارة العبد للخدمة مدة ونحو ذلك مما للباذل فيه غرض صحيح، ولكن لما دخله التوقيت أخرجه عن مقصود النكاح الذى شرع بوصف الدوام والاستمرار، وهذا بخلاف نكاح المحلل فإنه لايشبه شيئا من ذلك ولهذا شبهه الصحابة رضى الله عنهم بالسفاح، والعاشر: أن الله سبحانه نصب هذه الأسباب كالبيع والإجارة والهبة والنكاح مفضية إلى أحكام جعلها مسببات لها ومقتضيات، فجعل البيع سببا لملك الرقبة، والإجارة سببا لملك المنفعة أو الانتفاع، والنكاح سببا لملك البضع وحل الوطء، والمحلل مناقض معاكس لشرع الله ودينه، فإنه جعل نكاحه سيبا لتمليك المطلق البضع وإحلاله له، والحادى عشر: أن المحلل من جنس المنافق فإن المنافق يظهر أنه مسلم ملتزم لعقد الإسلام ظاهرا، وهو فى الباطن غير ملتزم له، وكذلك المحلل يظهر أنه زوج وأنه يريد النكاح ويسمى المهر ويشهد على رضاء المرأة وفى الباطن بخلاف ذلك لايريد أن يكون زوجا ولا أن تكون المرأة زوجة له ولايريد بذل الصداق ولا القيام بحقوق النكاح وقد أظهر خلاف ما أبطن.

يقول الإمام ابن القيم: وسبب هذا كله معصية الله ورسوله وطاعة الشيطان فى إيقاع الطلاق على غير الوجه الذى شرعه الله، والله سبحانه يبغض الطلاق فى الأصل، وفى سنن ابن ماجة من حديث أبى موسى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "مابال قوم يلعبون بحدود الله، يقول: قد طلقتك، قد راجعتك، قد طلقتك" وفى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: "إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منزلة أعظمهم فتنة، يجئ أحدهم فيقول: قد فعلت كذا وكذا، فيقول: ماصنعت شيئا، قال: ويجئ أحدهم فيقول: ماتركته حتى فرقت بينه وبين

أهله، قال: فيدنيه منه أو قال: فيلتزمه ويقول: نعم أنت أنت" فالشيطان وحزبه قد أغروا بإيقاع الطلاق والتفريق بين المرء وزوجه، وكثيرا مايندم المطلق ولا يصبر عن امرأته ولا تطاوعه نفسه أن يصبر عنها إلى أن تتزوج زواج رغبة تبقى فيه مع الزوج إلى أن يموت عنها أو يفارقها إذا قضى منها وطره، ولا بد له من المرأة، فيهرع إلى التحليل وهى حيلة من عدة حيل نصبوها للناس: منها التحيل على عدم وقوع الطلاق أصلا بأن يقول الرجل لزوجته: إذا طلقتك أو إذا وقع عليك طلاقى فأنت طالق قبله ثلاثا فلا يمكن أن يقع عليها الطلاق بعد هذا فسدوا باب الطلاق وجعلوا المرأة كالغل فى عنق الزوج لا سبيل له إلى طلاقها أبدا، ومنها التحيل بالمخالعة حتى يفعل المحلوف عليه فإذا فعله تزوجها بعقد جديد، ومنها إذا وقع الفأس فى الرأس وحنث ولابد أشترى غلاما دون البلوغ وزوجة بها وأمرها أن تمكنه من إيلاج الحشفة هناك فإذا فعل وهبها إياه فانفسخ نكاحها بملكه فتعتد وترجع إلى المطلق، ومنها استكراء التيس الملعون المستعار لينزو عليها، ومنها أن يأمروا المخلل بأن يطأها برجله فيطؤها وهى قاعدة أو مضطجعة برجله ثم يخرج ورأوا أن الوطء بالرجل أسهل عليهم وأقل مفسدة من الوطء بالآلة، ومنها أن تكون حاملا فتلد ذكرا وكأنهم قاسوا الذكر الذى شقها خارجا على الذكر الذى يشقها داخلا، ومنها أن يصب المحلل عليها دهنا يشربه جسدها ولا يطؤها وكأنهم قاسوا تشرب جسدها للدهن وسريانه فيه على شربه للنطفة وسريانها فيه، ومنها السفر عنها أو سفرها عنه فإذا قدم ظن أن ذلك كاف عن الزوج، ولا أدرى من أين ألقى إليهم الشيطان ذلك وكأنهم ظنوا أنهم قد التقوا من الآن وأن السفر قطع حكم مامضى رأسا.

ولكى يصون الإنسان نفسه عن كل ذلك ويتغلب على وساوس الشيطان وتلبيسه وتوهيمه فعليه أن يتقى الله فى الطلاق، فإن من طلق كما أمره الله

ورسوله وبمقتضى ماشرعه الإسلام كان فى غنى عن كل ذلك، ولذلك نجد الله سبحانه بعد أن ذكر حكم الطلاق المشروع قد ختم الآية بقوله عز شأنه: ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ﴾ (الطلاق: ٢) فلو اتقى الله عامة المطلقين لاستغنوا بتقواه عن الآصار والأغلال والمكر والاحتيال، فإن الطلاق الذى شرعه الله تعالى يقضى بأن يطلقها طاهرا من غير جماع ويطلقها واحدة، ثم يدعها حتى تنقضى عدتها، فإن بدا له أن يمسكها فى العدة أمسكها، وإن لم يراجعها حتى انقضت عدتها أمكنه أن يستقبل العقد عليها من غير زوج آخر، وإن لم يكن له فيها غرض لم يضره أن تتزوج بزوج غيره، فمن فعل ذلك لم يندم ولم يحتج إلى حيلة ولا إلى تحليل أو محلل.

والله سبحانه وتعالى إنما شرع الطلاق مرة بعد مرة ولم يشرعه جملة واحدة أصلا، قال تعالى: ﴿الطلاق مرتان ﴾(البقرة: ٢٢٩) والمرتان فى لغة العرب وسائر اللغات إنما تكون لما يأتى مرة بعد مرة، ولذلك قال تعالى فى الآية التالية: ﴿فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره ﴾(البقرة: ٢٣٠) فهذه هى المرة الثالثة وهذا هو الطلاق الذى شرعه الله سبحانه مرة بعد مرة ثم الثالثة والأخيرة وهذا هو شرعه من حيث العدد، أما شرعه من حيث الوقت فشرع الطلاق للعدة وقد فسره النبى ﷺ بأن يطلقها طاهرا من غير جماع، فلم يشرع جمع ثلاث ولا تطليقتين ولم يشرع الطلاق فى حيض ولا فى طهر وطئها فيه، وكان المطلق فى زمن رسول الله ﷺ كله، وزمن أبى بكر الصديق رضى الله عنه كله وصدرا من خلافة عمر رضى الله عنه إذا طلق ثلاثا يحسب له واحدة، روى مسلم عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس رضى الله عنه قال: كان الطلاق على عهد رسول الله ﷺ وأبى بكر وسنتين من خلافة عمر: طلاق الثلاث واحدة، فقال عمر رضى الله عنه: إن الناس قد استعجلوا فى أمر كانت لهم فيه أناة فلو أمضيناه عليهم؟ فأمضاه عليهم.

والله سبحانه وتعالى شرع الطلاق على أيسر الوجوه وأرفقها بالزوج والزوجة لئلا يتسارع العبد فى وقوعه ومفارقة حبيبته، وقد وقت للعدة أجلا لاستدراك الفارط بالرجعة فلم يبح له أن يطلق المرأة فى حال حيضها لأنه وقت نفرته عنها وعدم قدرته على الاستمتاع بها، ولم يبح له أن يطلقها عقب جماعها لأنه قد قضى غرضه منها وربما فترت رغبته فيها وزهد فى إمساكها لقضاء وطره، فإذا طلقها فى هاتين الحالتين ربما يندم بعد هذا، مع ما فى الطلاق فى الحيض من تطويل المدة وعقب الجماع من طلاق لعلها قد اشتمل رحمها على ولد منه فلا يريد فراقها، فأما إذا حاضت ثم طهرت فنفسه تتوق إليها لطول عهده بجماعها فلا يقدم على طلاقها فى هذه الحال إلا لحاجة ملحة، فلم يبح له الشارع أن يطلقها إلا فى هذه الحال أو فى حال استبانة حملها لأن إقدامه على الطلاق فى هذه الحالة أيضا دليل على حاجته إلى الطلاق.

ونصل من ذلك إلى أن الله تعالى لما كان يبغض الطلاق لما فيه من كسر الزوجة وموافقة رضا عدوه إبليس حيث يفرح لذلك فرحا شديدا، ولما فيه من تعريض كلا الزوجين للفجور والمعصية وغير ذلك من مفاسد الطلاق، وكان مع ذلك قد يحتاج إليه الزوج أو الزوجة وتكون المصلحة فيه شرعه سبحانه على وجه تحصل به المصلحة وتندفع به المفسدة وحرمه على غير ذلك الوجه، فشرعه على أحسن الوجوه وأقربها لمصلحة الزوج والزوجة، فشرع له أن يطلقها طاهرا من غير جماع طلقة واحدة، ثم يدعها حتى تنقضى عدتها، فإن زال الشر بينهما وحصلت الموافقة كان له سبيل إلى لم الشعث وإعادة الفراش كما كان، وإلا تركها حتى تنقضى عدتها، فإن تبعتها نفسه كان له سبيل إلى خطبتها وتجديد العقد عليها برضاها، وإن لم تتبعها نفسه تركها فنكحت من تشاء.

وقد جعل الله العدة ثلاثة قروء ليطول زمن المهلة والاختيار، وهذه رحمة من الله تعالى بعباده، ولم يأذن سبحانه وتعالى فى إبانتها بعد الدخول إلا بالتراضى بالفسخ والافتداء، فإذا طلقها مرة بعد مرة بقى له طلقة واحدة، فإذا طلقها الثالثة حرمها عليه عقوبة له، ولم يحل له أن ينكحها حتى تنكح زوجا غيره ويدخل بها ثم يفارقها بموت أو طلاق، فإذا علم الرجل أن من يحبها سوف تصير إلى غيره فيحظى بها دونه أمسك عن الطلاق، وهذا هو ما شرعه الله وأذن فيه، ولذلك يجب على الرجل أن يتقى الله فى زوجه ويمسكها بالمعروف أو يسرحها بالإحسان إذا استحالت عشرتها فإن تقوى الله مطلوبة، وهى خير عاصم للإنسان من الوقوع فى الزلل، ولذا نجد الله سبحانه وتعالى يقول فى السورة التى بين فيها الطلاق وأحكامه وحدوده ومشروعيته (سورة الطلاق) يقول تعالى: ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ﴾ (الطلاق: ٢) ويقول تعالى: ﴿ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ﴾(الطلاق: ٤) ويقول تعالى فى نفس السورة: ﴿ ذلك أمر الله أنزله إليكم• ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا ﴾(الطلاق: ٥) فمن طلق امرأته على غير تقوى الله كان حقيقا على الله سبحانه أن لا يجعل له مخرجا، وأن لايرزقه من حيث لايحتسب، وأن لايجعل له من أمره يسرا، وأن لايكفر عنه سيئاته أو يعظم له أجرا.

المس الشيطانى

جاء فى مختار الصحاح للإمام الرازى ـ دار الحديث ـ طبعة دار مصر للطباعة باب الميم ص ٦٢٤ عن معنى المس: مس الشئ يمسه بالفتح مسا، وأمسه الشئ فمسه، والمماسة كناية عن المباضعةوكذا التماس ﴿من قبل أن يتماسا﴾، (لامساس) أى لا أمس ولا أمس، وبينهما رحم ماسة أى قرابة قريبة، وحاجة ماسة أى مهمة، وقد مست الحاجة إليه أى دعت إليه الحاجة.

وجاء فى المعجم الوسيط ـ الجزء الثانى ـ مطبعة مصر ١٩٦١ ص ٨٧٥: مس الشئ مسا: لمسه بيده ﴿لايمسه إلا المطهرون﴾ ويقال مسست الشئ، ومس الماء الجسد أصابه و يقال مسه بالسوط ومسه الكبر ومسه المرض، ومس المرأة باضعها ﴿قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر﴾، ﴿فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا﴾ ومسه العذاب، ومستهم البأساء والضراء أى أصابتهم، ومسه الشيطان: جن، ومست به رحم فلان قربت، وماس الشئ الشئ لقيه بذاته، وفى النهى: لا مساس، ولاتمس، وتماس الجرمان: مس أحدهما الآخر، والمس: الجنون وعلاج يكون بمس الجلد أو الغشاء المخاطى بمادة كاوية، ورأيت له مسا فى ماله: أثرا حسنا.

وجاء فى القرآن الكريم معنى المس مرادفا لما يصيب الإنسان من تعب أو ضر أو نفع أو عذاب أو خير أو شر أو سوء، قال تعالى: ﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله﴾ (آل عمران: ١٤٠) وقال تعالى: ﴿وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء﴾ (الأعراف: ٩٥) وقال تعالى: ﴿وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما﴾ (يونس: ١٢) وقال جل جلاله: ﴿وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه﴾ (الروم: ٣٣) وقال عز من قائل: ﴿ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى﴾ (هود: ١٠)، وقال

سبحانه: ﴿مستهم البأساء والضراء وزلزلوا﴾ (البقرة: ٢١٤) وقال: ﴿ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن ياويلنا﴾ (الأنبياء: ٤٦) وقال: ﴿لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾(الأنفال: ٦٨) وقال: ﴿وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون﴾ (النحل: ٥٣) وقال: ﴿ولقد خلقنا السموات والأرض فى ستة أيام وما مسنا من لغوب﴾ (ق: ٣٨) وقال: ﴿ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ومامسنى السوء﴾(الأعراف: ١٨٨) وقال: ﴿إن الانسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جذوعا وإذا مسه الخير منوعا﴾ (المعارج: ٢٠- ٢١) وقال: ﴿إن تمسسكم حسنة تسؤهم﴾ (آل عمران: ١٢٠) وقال تعالى: ﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شئ قدير﴾ (الأنعام: ١٧) وقال تعالى: ﴿الذى أحل لنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب﴾ (فاطر: ٣٥) وقال تعالى: ﴿لايمسهم فيها نصب وماهم منها بمخرجين﴾ (الحجر: ٤٨).

وجاء معنى المس فى القرآن الكريم مرادفا للمباضعة، قال تعالى: ﴿لاجناح عليكم إن طلقتكم النساء مالم تمسوهن﴾ (البقرة: ٢٣٦) وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها﴾ (الأحزاب: ٤٩) وقال: ﴿قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر﴾ (آل عمران: ٤٧) وقال تعالى: ﴿والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا﴾ (المجادلة:٣).

وجاء معنى المس فى القرآن الكريم بمعنى العقاب، قال تعالى: ﴿ولاتركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار﴾(هود: ١١٣) وقال: ﴿يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر﴾ (القمر: ٤٨) وجاء بمعنى التعدى قال تعالى:

﴿ولاتمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم﴾ (الأعراف: ٧٣) وجاء معبرا عن الشيخوخة، قال تعالى: ﴿قال أبشرتمونى على أن مسنى الكبر﴾(الحجر: ٥٤) وجاء معبرا عن اللمس، قال تعالى: ﴿فى كتاب مكنون لايمسه إلا المطهرون﴾ (الواقعة: ٧٩) وجاء بمعنى الاتصال، قال تعالى: ﴿يكاد زيتها يضيئ ولو لم تمسسه نار﴾ (النور: ٣٥) وجاء بمعنى الإقتراب، قال تعالى: ﴿فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لامساس﴾ (طه: ٩٧).

وجاء المس فى القرآن الكريم بمعنى إلحاق الضرر، قال تعالى: ﴿واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب﴾(ص: ٤١) أى ضرر وعذاب، وقال تعالى: ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا﴾ (الأعْراف: ٢٠١) أى شئ ألم بهم من وساوس الشيطان، وجاء بمعنى الجنون، قال تعالى: ﴿الذين يأكلون الربا لايقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس) (البقرة: ٢٧٥) أى يصرعه الشيطان من الجنون.

وما يهمنا من كل تلك المعانى للمس هى مايتعلق منها بالمس الشيطانى والتى جاءت مرة بمعنى إصابة الإنسان بالضر والعذاب، وجاءت أخرى بمعنى وساوس إبليس للناس، وجاءت ثالثة بمعنى الإصابة بالجنون.

وإذا تتبعنا هذه المعانى فإنه يتبين لنا مدى عداء إبليس لبنى آدم ومدى حقده عليهم، فهو لايكتفى بوساوسه وتوهيمه وتلبيسه وإلحاق الضر والعذاب بالإنسان، بل تصل به الأحقاد إلى حد إصابة الإنسان بالصرع والجنون، وهو يحرص كل الحرص على خروج الإنسان من الدنيا بلا حسنة واحدة حتى يحقق العهد الذى قطعه على نفسه بإغواء بنى آدم الذين كرمهم الله وفضلهم على خلقه ﴿ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾ (الإسراء: ٧٠).

فلماذا نترك للشيطان الفرصة ليلعب بنا كيف يشاء؟ ولماذا نعين الشيطان

على أنفسنا بفعل الموبقات وارتكاب الفواحش ومخالفة أوامر الله عز وجل والخروج على طاعته؟ ولماذا نتتبع خطوات الشيطان ونستمع إلى نصائحه التى لن توردنا إلا موارد التهلكة؟ إن المتتبع لآيات الذكر الحكيم سوف يتوقف كثيرا أمام هذه الآية الكريمة من سورة إبراهيم لأنها تبين بوضوح حقيقة إبليس اللعين الذى لم يدخر وسعا فى إغواء بنى آدم، وها هو فى النهاية يتبرأ من الذين أغواهم ـ بعد أن أوردهم النار ـ ويوجه اللوم لهم على طاعتهم إياه ويعترف بأن وعد الله هو الحق، ويقر بأن سلطانه على بنى آدم لايزيد عن مجرد الدعوة فقط، وأن بنى آدم هم الذين استجابوا لدعوته واتبعوا سبيله، يقول تعالى: ﴿وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم﴾.(إبراهيم :٢٢)

هذا هو إبليس اللعين الذى حذرنا الله منه ومن فتنه يتبرأ فى النهاية من الذين اتبعوه وساروا على دربه، فهل لعاقل بعد أن يقرأ هذه الآية الكريمة إلا أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم؟ وإلا أن يتبرأ من الشيطان ومن جنوده ومن أوليائه؟ وإلا أن يثوب إلى رشده ،وصوابه ويلتزم الصراط المستقيم ليفوز برضوان الله وجنته؟

واسمع الى هذه الرواية التى ذكرها وهب بن منبة: بلغناأن الخبيث إبليس تبدى ليحيى بن زكريا عليهما السلام فقال: إنى أريد أن أنصحك، فقال: كذبت أنت لاتنصحنى ولكن أخبرنى عن بنى آدم؟ قال: هم عندنا ثلاثة أصناف، أما الصنف الأول وهم أشد الأصناف علينا فإننا نقبل على أحدهم حتى نفتنه ونستمكن منه ثم يفزع إلى الاستغفار والتوبة فيفسد علينا كل شئ أدركناه منه، ثم نعود فلا نحن نيأس منه ولا نحن ندرك منه حاجتنا،

وأما الصنف الثاني: فهم فى أيدينا بمنزلة الكرة فى أيدى صبيانكم نتلقفهم كيف شئنا فقد كفونا أنفسهم، وأما الصنف الثالث: فهم مثلك معصومون ولا نقدر منه على شئ، فقال له يحيى عليه السلام: هل قدرت منى على شئ؟ قال: لا، إلا مرة واحدة فإنك قدمت طعاما تأكله فلم أزل أشهيه إليك حتى أكلت أكثر مما تريد فنمت تلك الليلة ولم تقم إلى الصلاة كما كنت تقوم إليها، فقال يحيى: لا جرم لا شبعت طعاما أبدا حتى أموت، فقال له الخبيث: لا جرم لانصحت آدميا بعدك أبدا.

أرأيت أخى المسلم فضل الاستغفار الذى اعترف به إبليس اللعين: نقبل على أحدهم حتى نفتنه ونستمكن منه ثم يفزع إلى الاستغفار والتوبة فيفسد علينا كل شئ أدركناه منه؟ عليك إذن ألا تغفل عن الاستغفار والتوبة ففى مسند الإمام أحمد عن أبى سعيد أن الشيطان قال: (وعزتك يارب لا أبرح أغوى عبادك مادامت أرواحهم فى أجسادهم، فقال الرب عز وجل: ﴿وعزتى وجلالى وارتفاع مكانى لا أزال أغفر لهم ماداموا يستغفروننى﴾.

ثم أرأيت أثر الشبع والنهم فى تناول الطعام، إن الشبع باب من أبواب إبليس التى يلج منها للناس فالمؤمن إذا شبع من طعام نام فحرم من خير كثير، قال لقمان الحكيم: إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة. وقال رسول الله ﷺ : "ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه" رواه ابن ماجه.

إن العداوة المتمكنة من قلب إبليس اللعين لبنى آدم وشغفه بالانتقام من كل ماهو آدمى لاعتقاده الخاطئ بأن آدم عليه السلام هو سبب طرده من الجنة حتى أصبح انتقامه هذا سببا فى كل فساد وإفساد على وجه الأرض، ويوضح لنا الإمام ابن القيم هذا المعنى فيقول: إن الشيطان صاحب الأبوين (آدم

وحواء) حتى أخرجهما من الجنة، وصاحب قابيل حتى قتل أخاه هابيل، وصاحب قوم نوح حتى أغرقوا، وصاحب قوم عاد حتى أهلكوا بالريح العظيم، وصاحب قوم صالح حتى أخذتهم الصيحة وصاحب الأمة اللوطية حتى خسف بهم وأتبعوا بالرجم بالحجارة، وصاحب فرعون وقومه حتى أخذوا الأخذة الرابية، وصاحب عباد العجل حتى جرى عليهم ما جرى، وصاحب قريشا حتى دعوا يوم بدر، وصاحب كل هالك ومفتون.

وقد تصدى إبليس اللعين لإبراهيم عليه السلام حتى رماه قومه بالمنجنيق فى النار ولكن الله رد كيده عليه وجعل النار على خليله بردا وسلاما، وتصدى للمسيح عيسى عليه السلام حتى أراد اليهود قتله وصلبه ولكن الله رد كيده وصان المسيح ورفعه إليه، وتصدى لزكريا ويحيى عليهما السلام حتى قتلا.

والمس الشيطانى ينصب أساسا على العقل فإبليس يسحر العقل دائما ولا يسلم من مسه هذا وسحره إلا المؤمن قوى الإيمان صادق العزيمة العابد للرحمن، يقول تعالى: ﴿إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين﴾ (الحجر: ٤٢) فإبليس يزين الفعل الذى يضر الإنسان حتى يخيل إليه أنه من أنفع الأشياء، وينفر من الفعل الذى هو أنفع الأشياء له حتى يخيل إليه أنه يضره، وكم فتن بهذا السحر من إنسان فهو الذى سحر العقول حتى ألقى أربابها فى الأهواء المختلفة وسلك بهم سبل الضلال وألقاهم فى المهالك فزين لهم عبادة الأصنام وقطيعة الأرحام ووأد البنات ونكاح الأمهات، ووعدهم بالجنة مع الكفر والفسوق والعصيان، وأبرز لهم الشرك فى صورة التعظيم والكفر بصفات الرب تعالى وعلوه وتكلمه بكتبه فى قالب التنزيه وترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى قالب التودد إلى الناس وحسن الخلق معهم عملا بقوله تعالى: ﴿عليكم أنفسكم لايضركم من ضل﴾، والإعراض عما جاء

به الرسول الكريم، وكثير ممن تسلط إبليس على عقولهم أصيبوا بالجنون، فقد جعلهم هذا اللعين يفكرون ويبحثون فى أشياء لاتستطيع عقولهم الآدمية إدراكها، بل جعلهم يبحثون فى ذات الله العلية ويتساءلون على غرار نظرية كل موجود لابد له من واجد وكل مصنوع لابد له من صانع وكل مخلوق لابد له من خالق فيسألون: هذا الله خلقنا فمن خلق الله؟ وأين كان موجودا قبل خلق الكون؟.. وغير ذلك من الأسئلة التى لابد وأن تصل بالانسان إلى الكفر أو الإلحاد أو الجنون وبذلك يكون إبليس اللعين قد حقق غرضه.

سئل أبو بكر الصديق رضى الله عنه: كيف عرفت ربك؟ قال: عرفت ربى بربى ولولا ربى ماعرفت ربى، قيل له فكيف أدركته؟ قال: العجز عن الإدراك إدراك والبحث فى ذات الله إشراك.

وسئل الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه: صف لنا الله فقال: سبحان ربى لايدرك بالحواس ولايقاس بالناس، فوق كل شئ وليس تحته شئ، وهو فى كل شئ لا كشيئ فى شئ، سبحانه ليس بصورة ولا بجسم ولا معدود ولامحسوب ولامتجزئ ولا متبعض، ولا يسأل عنه بما هو لأنه لايعلم حقيقة الله إلا الله، ولا بأين هو لأنه خالق المكان ولابمتى كان لأنه خالق الزمان، وكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك ﴿ليس كمثله شئ وهو السميع البصير﴾ .

فإذا علمنا ذلك... فكيف السبيل إلى محاربة هذا العدو المضل المبين وكيف نتغلب عليه؟

كيفية التغلب على إبليس

أول الوسائل لمحاربة عدو الله إبليس هى اللجوء إلى الله تعالى والاستعاذة به من شر هذا الشيطان، وقد كان رسول الله ﷺ وهو الذى لا سبيل للشيطان إليه يستعيذ بالله من الشياطين فيقول: "أعوذ بكلمات الله التامات من شر ماخلق وذرأ ومن شر ماينزل من السماء ومن شر ما يعرج فيها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر كل طارق إلا طارقا يطرق بخير يارحمن" وكان عليه الصلاة والسلام يعوذ حفيديه الحسن والحسين فيقول: "أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة" ثم يقول: "هكذا كان ابراهيم ﷺ يعوذ إسماعيل وإسحاق".

وقد أمرنا الله تعالى بالاستعاذة من الشيطان عند قراءة القرآن: ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾ (النحل: ٩٨) وقد فسر العلماء هذه الآية بأن الشيطان يجلب على القارئ بخيله ورجله حتى يشغله عن تدبر القرآن وفهمه فلا يكمل انتفاع القارئ فأمر عند الشروع فى التلاوة أن يستعيذ بالله منه، وأمرنا سبحانه وتعالى بالإستعاذة به إذا وسوس لنا الشيطان أو همزأو نزغ، قال تعالى: ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم﴾ (الأعراف: ٢٠٠) وقال تعالى: ﴿وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين﴾ (المؤمنون: ٩٧) وقال: ﴿قل أعوذ برب الناس• ملك الناس• إله الناس• من شر الوسواس الخناس• الذى يوسوس فى صدور الناس) (الناس: ١ـ ٥) وأصل النزغ الفساد، يقال: نزغ بيننا أى أفسد كما قال تعالى على لسان يوسف عليه السلام: ﴿من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى﴾ (يوسف: ١٠٠) أى أفسد ، وقيل : النزغ الإغواء والمعنى متقارب.

وأمرنا رسول الله ﷺ بالإستعاذة من الشيطان عند النوم، روى أبو داود

والترمذى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنه قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات نقولها عند النوم "بسم الله أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون" ونفس الإستعاذة عندما يصاب الإنسان بالأرق، وروى مسلم عن سليمان بن سرد قال: إستب رجلان عند النبى ﷺ فجعل أحدهما يغضب ويحمر وجهه وتنتفخ أوداجه فنظر إليه النبى ﷺ وقال: "إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب الغضب عنه: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم".

والاستعاذة بالله من الشيطان مطلوبة فى كل وقت وفى كل عمل يقوم به الإنسان فهى مطلوبة عند السفر وعند الإقامة وعند الخروج من البيت وعند الدخول فى الصلاة، وحتى عند دخول الحمام لقضاء الحاجة: "اللهم إنى أعوذ بك من الخبث والخبائث" والخبث جمع خبيث وهم ذكور الشياطين، وحتى عند وطء الرجل لزوجته "اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان مارزقتنا".ومن وسائل محاربة إبليس ذكر الله، روى مسلم عن جابر رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان لجنوده: لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر الله تعالى عند طعامه قال: أدركم المبيت والعشاء". وقراءة القرآن خير معيذ من الشياطين، فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "لا تجعلوا بيوتكم قبورا وإن البيت الذى تقرأ فيه البقرة لايدخله الشيطان" ومن قرأ آية الكرسى: "الله لا إله إلا هو الحى القيوم...الخ الآية" عندما يأوى إلى فراشه لايزال عليه من الله حافظ ولن يقربه شيطان حتى يصبح، ومن قرأ الآيتين الأخيرتين من سورة البقرة كفتاه من شر مايؤذيه، وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك

وله الحمد وهو على كل شئ قدير فى يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر من ذلك" وفى الترمذى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "من قال ـ يعنى إذا خرج من بيته ـ بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، يقال له: كفيت وهديت ووقيت وتنحى عنه الشيطان فيقول لشيطان آخر: كيف لك برجل قد هدى وكفى ووقى؟" رواه أبو داود والنسائى، وقال مجاهد: ما من شئ أكسر لظهر إبليس من لا إله إلا الله.

والعلم يحصن الإنسان ضد الشياطين، أخرج الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد" وقال ابن عباس: "إن الشياطين قالوا لإبليس: ياسيدنا إنا نفرح بموت العالم مالا نفرح بموت العابد، والعالم لا نصيب منه والعابد نصيب منه، قال: انطلقوا، فانطلقوا إلى عابد وأتوه فى عبادته فقالوا نريد أن نسألك سؤالا فقال إبليس: هل يقدر ربك أن يجعل الدنيا فى جوف بيضة؟ فقال العابد: لا أدرى، فقال إبليس للشياطين: أترونه كفر فى جوابه؟ ثم جاء إلى رجل عالم فى حلقة يضاحك أصحابه فقال: نريد أن نسألك، فقال: سل، فقال إبليس: هل يقدر ربك أن يجعل الدنيا فى جوف بيضة؟ قال: نعم، قال: كيف؟ فقال العالم" يقول (كن فيكون) فقال إبليس للشياطين: أترون ذلك ـ أى العابد ـ لايعدو نفسه، وهذا ـ أى العالم ـ يفسد على عالمنا كثيرا، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: "من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ويلهمه رشده".

ويروى الشيخ عبد القادر الجيلانى عليه رحمة الله قصة حدثت له فيقول: اشتد على الحر فى بعض الأسفار يوما حتى كدت أموت عطشا فظللتنى سحابة سوداء وهب على منها هواء بارد حتى دار ريقى فى فمى، وإذا بصوت

ينادينى منها: ياعبد القادر أنا ربك، فقلت له: أنت الله الذى لا إله إلا هو؟ فنادانى مرة أخرى فقال: ياعبد القادر أنا ربك وقد أحللت لك ماحرمت عليك، فقلت له: بل أنت الشيطان، فتمزقت تك السحابة وسمعت من ورائى قائلا: ياعبد القادر نجوت منى بفقهك فى دينك، لقد فتنت بهذه الحيلة قبلك سبعين رجلا.

وقد سئل الشيخ عبد القادر: كيف عرفت أنه الشيطان؟ فأجاب: لأنه قال: أحللت لك المحرمات لأنه بعد رسول الله ﷺ لا تحليل ولا تحريم، أرأيت فضل العلم فلولاه لهلك عبد القادر.

وقد أمرنا الله تعالى بعدم اتباع خطوات الشيطان فى قوله تعالى: ﴿ياأيها الذين آمنوا لاتتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر﴾ (النور: ٢١) يقول الامام القرطبى: لاتتبعوا خطوات الشيطان أى لاتسلكوا الطريق التى يدعوكم إليها الشياطين، ويقول قتادة: كل معصية فهى من خطوات الشيطان، فإذا كان الله تعالى يحذرك من اتباع خطوات الشيطان الذى يأمر بالفحشاء والمنكر ويدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير، فلابد أن نخالفه ونسلك طريقا غير طريقة وهو طريق الله الذى يأمرنا سبحانه بأن نسلكه، يقول تعالى: ﴿وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾ (الأنعام: ١٥٣).

فماذا إذا وقع الإنسان فريسة لإبليس اللعين وأطاعه فيما يغضب الله؟ الأمر بسيط وسهل وميسور، عليه ـ بعد أن وقف على حيل إبليس وألاعيبه وأساليبه فى إغواء بنى آدم ـ أن يستغفر الله ويسارع بالتوبة إليه والإنابة إليه والإقلاع فورا عن الذنب والتبرؤ منه، وباب السماء مفتوح دائما فهو سبحانه وتعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيئ النهار ويبسط يده بالنهار

ليتوب مسيئ الليل، ورحمة الله بعباده لاحد لها فهو القائل: ﴿ورحمتي وسعت كل شئ﴾(الأعراف: ١٥٦) ومغفرة الله لعباده لاحدود لها فهو القائل: ﴿إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء﴾ (النساء: ٤٨)، فإذا كان ما وقع فيه الإنسان من صغائر الذنوب مثل النظرة الأولى إلى امرأة بشهوة أو الجلوس مع أجنبية أو التجسس على بيوت الناس أو كشف العورة بغير مرأى من الناس أو وصال الصوم أو الصوم فى يوم منهى عنه أو الجلوس مع فاسق أو البيع والشراء عند أذان الجمعة أو العبث فى الصلاة أو مباشرة الصائم زوجته (بدون جماع) كأن قبلها أو ضمها إلى صدره أو غير ذلك، فهذه الصغائر لها مكفرات كثيرة كالصوم والصدقات والاستغفار واجتناب الكبائر، يقول تعالى: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما﴾ (النساء: ٣١) ويقول رسول الله ﷺ: (الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات مابينهن إذا اجتنب الكبائر" رواه مسلم.

أما إذا كان الذنب الذى وقع فيه الإنسان من الكبائر مثل الشرك بالله أو الإضرار بالناس أو الإصرار على المعصية أو القنوط من رحمة الله أو الأمن من مكر الله أو شهادة الزور أو قذف المحصنات الغافلات المؤمنات أو اليمين الغموس أو السحر أو شرب الخمر أو أكل مال اليتيم أو أكل الربا أو الزنا أو اللواط أو القتل أو السرقة أو الفرار من الزحف أو عقوق الوالدين أو غيرها، فهذه الكبائر لا يكفرها إلا التوبة النصوح والإقلاع عنها نهائيا وإدامة الاستغفار، والله سبحانه وتعالى يفرح بتوبة عبده ويقول فى حديث قدسى جليل: "أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه إن ذكرنى، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى وإن ذكرنى فى ملأ عنده ذكرته فى ملأ خير منهم، وإن تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا، وإن تقرب إلى ذراعا تقربت إليه باعا وإن

أتانى يمشى أتيته هرولة" ويقول رسول الله ﷺ: "إذا تاب العبد وحسنت توبته أو قدت الملائكة بينه وبين سماء الدنيا سبعين قنديلا من نور، وينادى المنادى: ألا إن فلانا ابن فلان قد اصطلح مع سيده، فإذا سمع إبليس ذلك ذاب كما يذوب الملح فى الماء".

واسمع إلى هذه الرواية لترى مدى رحمة الله بعباده ومغفرته لهم، جاءت امرأة إلى كليم الله موسى عليه السلام وقالت له: يا كليم الله لقد أذنبت ذنبا كبيرا فهل لى من توبة؟ فقال موسى: وما ذنبك؟ قالت: زنيت وحملت من الزنا وقتلت ابنى الذى ولدته، فقال لها موسى: أغربى عنا بوجهك خشية أن يأخذنا الله بسبب ذنبك، فخرجت المرأة باكية، وفجأة زلزلت السماء وهبط كبير أمناء الوحى جبريل عليه السلام على موسى يقول له: ربك يقرئك السلام ويقول لك: أطردتها وقد جاءت تائبة؟ أتدرى من هو أشد منها ذنبا؟ قال موسى: ومن يكون؟ قال جبريل: تارك الصلاة عامدا متعمدا.

وهناك بعض أحاديث عن رسول الله ﷺ تتعلق بالشيطان اللعين وتتضمن توجيهات للأمة الإسلامية منها ما ذكره ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: "لا يأكلن أحدكم بشماله ولا يشربن بها فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بها" رواه مسلم، وذكر أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "إذا رأى أحدكم رؤيا يحبها فإنما هى من الله تعالى فليحمد الله عليها وليحدث بها، وإذا رأى غير ذلك مما يكره فإنما هى من الشيطان فليستعذ من شرها ولا يذكرها لأحد فإنها لا تضره" رواه البخارى ومسلم، وذكر أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: "إن الله يحب العطاس ويكره التثاؤب، فإذا عطس أحدكم وحمد الله تعالى كان حقا على كل مسلم سمعه أن يقول له: يرحمك الله، وأما التثاوب فإنما هو من الشيطان فإذا تثاءب أحدكم فليمسك بيده على فيه فإن أحدكم إذا تثاءب ضحك منه

الشيطان" رواه البخارى، وذكر ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "أقيموا الصفوف وحاذوا المناكب وسدوا الخلل ولينوا بأيدى إخوانكم ولاتذروا فرجات للشيطان ومن وصل صفا وصله الله ومن قطع صفا قطعه الله" رواه أبو داود ، وذكر أبو الدرداء رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "ما من ثلاثة فى قرية ولابدو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان، فعليكم بالجماعة فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية" رواه مسلم، وذكر أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير، إحرص على ماينفعك واستعن بالله ولاتعجز وإن أصابك شئ فلا تقل: لو أنى فعلت كذا كان كذا وكذا ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان" رواه مسلم، وذكر أبو هريرة أيضا أن رسول الله ﷺ قال: "إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خلق من النار وإنما النار تطفأ بالماء فإذا غضب أحدكم فليتوضأ" رواه أبو داود..

صدقت ياسيدى يارسول الله وبلغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت الأمة وكشفت الغمة ومحوت الظلمة فجزاك: الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

وبعد... فقد تم بحمد الله هذا المختصر الذى حوى خلاصة ما جاء فى المصنفين الأشهرين "تلبيس إبليس" و"إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان" أرجو أن يكون الله قد وفقنى فى عرض المضمون بصورة سهلة مواكبة لإيقاع العصر، وبصياغة ميسرة تحقق الترابط والانسجام بين أبواب الكتابين وفصولهما، وإذا كنت قد تدخلت ببعض الإضافات أو الشروح فإنما ذلك لتوضيح بعض المعانى التى قد تشكل على القارئ، والله أسأل أن يتقبل هذا العمل المتواضع لوجهه الكريم، وهو سبحانه من وراء القصد.

﴿هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يوقنون﴾ (الجاثية: ٢٠).

﴿يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾ (يونس: ٥٧).

﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾(آل عمران: ٨). **صدق الله العظيم**

شحاتة زايد

الفهـــــرس